بسم الله الرحمن الرحيم

حركة التاريخ وسننه

عند علي وفاطمة عليهما السلام

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ـ وزارة الثقافة ١٠٨٢

لسنة ٢٠٠٩ م

الحسني، نبيل، ١٩٦٥ - م.

حركة التاريخ وسننه عند علي وفاطمة عليهما السلام / تأليف نبيل الحسني. - كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٠ق. = ٢٠٠٩م.

ص ١٦٠. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛ ٣٦).

المصادر : ص. ١٥١ - ١٥٥ ؛ وكذلك في الحاشية.

١. التاريخ (كلام) وعلي بن أبي طالب (ع)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ ق. - دراسة وتحقيق. ٢. التاريخ (كلام) وفاطمة الزهراء (س)، ٨؟ قبل الهجرة - ١١ ق. - دراسة وتحقيق. ٣. التاريخ (كلام) - من ناحية القرآنية. ٤. فاطمة الزهراء (س)، ٨ قبل الهجرة - ١١ق. - خطب - نقد وتفسير. ألف. عنوان.

BP ٣٨ / ٠٩ / ٥ح ٢ت

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر

حركة التاريخ وسننه عند علي وفاطمة عليهما السلام

دراسة إسلامية معاصرة

تأليف

السيد نبيل الحسني

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

العراق: كربلاء المقدسة – العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية – هاتف: ٣٢٦٤٩٩

Web: www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ

ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

الإهداء

إلى روح النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وقلبه ومهجته فاطمة عليها السلام.

إلى بضعته ونور عينه.

إلى من أزالت البُهم عن سنن الأولين.

وكشفت عن حركة تاريخ الآخرين.

إلى من شخّصت المضلّين ودلّت على الغاوين وأشارت إلى المبطلين.

إلى من أوضحت الطريق للسالكين وأنارت السبيل للقاصدين.

إلى من كافحت وجاهدت ودافعت عن شريعة سيد المرسلين.

فمضت شهيدة لرب العالمين.

أهدي كتابي هذا...

مقدمة الكتاب

«الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها»[1].

والصلاة والسلام على خير الأنام وكاشف الظلام وعلى آله الهداة إلى الإسلام وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد:

فإن من عوامل رقيّ الأمة ودوام نهضتها ونشر حضارتها هو الإحاطة بحركة تاريخها والتسلط على كوامن أخبارها والتأمل بحوادث أسلافها والتوقف عند أفعالها وفهم أحوالها وإدراك معاني أقوالها ودراسة سلوكياتها.

كما أن بناء الأمة لا يقوم إلا بمنهاج الاعتبار من سنن تاريخها وتجنب الوقوع في فخاخ فتنها والاقتداء بأخيارها وتشخيص فجارها ونبذ سلوك أشرارها.

عند ذلك سيكتب لها البقاء وسيعم على أجيالها الرخاء ويقيهم كيد الأعداء؛ بل إن ذلك سيجعل للحضارة دلالة على التحضر وطريقاً إلى التمدن.

---

(١) هذا ما ابتدأت به بضعة النبي الأعظم ﷺ خطبتها الاحتجاجية التي ألقتها في مسجد رسول الله ﷺ في مجمع من المهاجرين والأنصار.

وما ينال ذلك إلا بالسفر إلى معين المعرفة، ومنهل العلوم المختلفة، ومورد الظمآن لمعرفة مكامن الحكمة والتجلبب بجلباب العزة، وهما القرآن والعترة.

فإليهما شددنا الرحال وفي باحة عزهما ألقينا عن ظهورنا أثقال الجهل وفككنا أزرار مدارك الفهم صامتين مستمعين متأملين ومفكرين وللمزيد من فضلهم ملتمسين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾[1]، فما خاب ظننا ولا أخطأنا في وجهتنا بل قادنا اليقين وأخذ بحجزتنا العقل والقلب والدين؛ فمن شأن الكريم الإعادة ومن شيمة الجواد البذل والزيادة.

فمنّوا علينا بهذه المباحث، ولاسيما بضعة الهادي الأمين وسيدة نساء العالمين فاطمة وحسبي بها كرماً وهي أم رحمة الله للعالمين.

ناهيك عن جود ابن عمها وباب مدينة علم أبيها علي أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ فقد أغرقنا بفضله ومنّ علينا بلطفه كما منّ سليمان على شيعته إذ قال له ربه:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

فمن القرآن والنبي الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ كانت بداية بحثنا وعند علي وفاطمة كان مستقرنا ومستودعنا لنضع بين يدي القارئ الكريم هذا الكتاب.

السيد نبيل قدوري حسن الحسني

يوم عيد الأضحى لسنة ١٤٢٩هـ

٩ / ١٢ / ٢٠٠٨م

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٩.

الفصل الأول

حركة التاريخ عند العرب قبل الإسلام

المبحث الأول: معنى التاريخ والخبر

المسألة الأولى: المعنى اللغوي للتاريخ

وردت لفظة (التاريخ) في كتب اللغة بمعنى: الوقت.

قال ابن دريد: «ورَّخت الكتاب وأرخته، ومتى أرِّخ كتابك، ووُرِّخ أي متى كتب»[1].

وقال ابن منظور:

«التاريخ والتوريخ: تعريف الوقت، أرَّخ الكتاب ليوم كذا: وقّته»[2].

وقال الجواليقي:

«إنّ اللفظة ليست عربية محضة وإنّ المسلمين أخذوها من أهل الكتاب»[3].

وقيل: «إنها عربية. وقيل: هي أكدية وبابلية ووردت بصيغة (أرخ) (Arah) (أرخا) (Arha) أرخو (Arhu) ورخو (Warhu) وتعني (القمر) (الهلال) (الشهر) (أول الشهر)»[4].

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد: ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢) لسان العرب لابن منظور: مادة أرخ.

(٣) المعرب: باب التاء، ص ١٣٧.

(٤) دراسة مصادر السيرة النبوية لسامي البدري: ص ٢١.

المسألة الثانية: معنى الخبر ومتى استعمل؟

قالوا في اللغة: «الخبر: محركة: النبأ، هكذا في المحكم. وفي التهذيب: الخبر ما أتاك من نبإ عمن تستخبر، وظاهره بل صريحه انهما مترادفان.

وقالوا: «الخبر عرفاً ولغة ما ينقل عن الآخرين، وزاد فيه أهل العربية: واحتمل الصدق والكذب لذاته»[1]. وقد استعمله أهل علم الحديث بمعنى: «الحديث، والحديث: ما عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم. والخبر: ما عن غيره وقال جماعة من أهل الاصطلاح: الخبر أعم، والأثر هو الذي يعبر به عن غير الحديث»[2].

وقالوا: «إنّ كلمة (خبر) التي استعملها العرب في صدر الإسلام لمعنى التاريخ لها في اللغات السامية قصة طويلة، منها معنى: الربط والتقييد؛ وفيها من خلال كلمة خبر، معنى: البحث والفحص، ومعنى الأخبار أيضا. وقد تأخرت كلمة تأريخ حتى ظهرت وفشت على الأقلام الإسلامية؛ ولئن اضطربت تفاسير اللغويين لأصل هذه الكلمة وشكوا في عروبتها حتى أعطوها أصلا فارسيا: (ماه روز) قالوا إنها حرفت عنه، والأرجح أن جذورها (ورخ) هو جذر سامي ولكنه مأخوذ من لغة اليمن الجنوبية، وليس عن كلمة «يرج» أو «ياريح» العبرية، أو السريانية، كما وردت في الموسوعة الإسلامية، ومعناها الأول هناك هو القمر أو الشهر»[3].

«وإذا كانت كلمة تاريخ، تحمل في العربية منذ زمن بعيد خمسة من المعاني على الأقل هي:

---

(١) تاج العروس، الزبيدي: ج٦، ص٣٢٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفى: ج١، ص٤٩ ـ ٥٠.

١. سير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي، تقابل كلمة (The History of...) وتعني ما يفهم من كلمة التاريخ الإسلامي أو تاريخ إيطاليا.

٢. تاريخ الرجال أو ما يقابل (The Biography).

٣. عملية التدوين التاريخي، أو التأريخ ووصف التطور وتحليله، وهي التي تقابل كلمة (Historiography).

٤. علم التاريخ والمعرفة به، وكتب التاريخ وما فيها، وهو ما يقابل كلمة (The History) المفردة[١].

٥ ـ تحديد زمن الواقعة أو الحادث باليوم والشهر والسنة (The date).

إذا كان ذلك، فقد مرت هذه الكلمة بأطوار عدة، قبل أن تستقي فيها تلك المعاني، وتحملها في الإسلام. ولذا فقد وضعوا ـ أي المختصون ـ للتاريخ تعاريف مختلفة ومتعددة، ونظروا له من زوايا مختلفة أيضا، فهناك التصورات العامة للتاريخ، وهناك التصورات الدينية (كالزرادشتية، واليهودية، والإسلام، والمسيحية)، وهناك المعالجات المثالية للتاريخ والتي نشأت في القرن التاسع عشر وما بعده.. إلى غير ذلك.

لكننا نستخلص من جميع المعالجات والدراسات التي تناولت (التاريخ) بأننا نستطيع أن نضع للتاريخ ثلاثة تعاريف[٢] وكل واحد منها يمثل جزءا أو علما من علوم التاريخ، وبين هذه العلوم تقوم علاقات وثيقة»[٣].

---

(١) قال الدوري: يمكن أن نضيف معنى سادسا استمر فترة حسنة خلال التاريخ الإسلامي، وكانت كلمة تاريخ تستعمل فيها بمعنى تراث القوم، وتمثيل الشمائل الأساسية فيهم وكانوا يقولون: فلان تاريخ قومه. (نشأة علم التاريخ، لعبد العزيز الدوري: ص١٣.

(٢) وردت هكذا في المصدر والصحيح تعريفات.

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ٤٩ ـ ٥١.

المبحث الثاني: علوم التاريخ وموضوعه

المسألة الأولى: علوم التاريخ

يمكن لنا الإحاطة بعلوم التاريخ من خلال التعرف على أقوال المختصين في وضعهم بعض التعريفات المنبثقة من مفاهيم ثلاثة للتاريخ، وقد أشارت إحدى الدراسات التاريخية إلى تعريف التاريخ حسب هذه المفاهيم بقولها:

المفهوم الأول

«التاريخ هو العلم بالأحداث، والوقائع، والأوضاع، وأحوال البشر الكائنة في زمن الماضي، هذه الوقائع والأحداث والأوضاع التي هي في الواقع أحداث يومية صارت جزءا من التاريخ لمرور الزمن عليها.

التاريخ بهذا المفهوم، هو العلم بالأحداث، والأوضاع الماضية، وأحوال الماضي، والكتابة والتأليف في مثل هذا النوع من التاريخ مشهور بين جميع الشعوب والأمم»[١].

وعلى ضوء هذا المفهوم يجمع التاريخ الاختصاصات الآتية:

١ . الحوليات، وهي تاريخ الحوادث سنة بسنة وسردها كتاريخ الطبري.

٢ . تاريخ الطبقات تبعاً للمذهب أو الاتجاه مثل طبقات الشافعية أو طبقات الحنابلة... .

٣ . تاريخ الحكماء ويشمل تاريخ العلماء والأدباء والفلاسفة والأطباء، والمفسرين... .

---

(١) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٢١.

٤ . تاريخ المصنفات التي تؤرخ للتراث ابتداءً من المؤلفات نفسها، من مثل كتاب الفهرست لابن النديم.

٥ . تاريخ العلوم: وفيه يتم تصنيف العلوم وذكر أهم موضوعات العلم ومصنفاته، مثل كتاب (مفاتيح العلوم للسكاكي).

٦ . تاريخ المصطلحات العلمية التي ترصد أهم الألفاظ والمصطلحات المستعملة في التراث القديم كله بجميع علومه مثل (التعريفات للجرجاني).

٧ . تاريخ الحضارات والأمم: ويتم فيه رصد أعلام كل أمة وأسماء مؤلفيها وطبائعها وأمزجتها وإبداعاتها وآثارها وإسهاماتها في التاريخ البشري من مثل كتاب (طبقات الأمم لصاعد الأندلسي)[1].

المفهوم الثاني: التاريخ العلمي

«وهو العلم بالقواعد والقوانين والسنن المهيمنة على الحياة الماضية، وهذا يأتي من دراسة الأحداث والوقائع الماضية وتحليلها، وتشكل مسائل (التاريخ النقلي) المواد الأولية لهذا العلم.

هذا الجانب من التاريخ العلمي وإن كانت مواده الأولية ترتبط بالماضي، لكنه يستهدف اكتشاف القواعد والقوانين التي يمكن تعميمها على الحاضر والمستقبل.

وهذا الهدف يجعل التاريخ مقيدا جدا، ويجعل منه مصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية»[2].

(١) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ: ص ٣٠.

المفهوم الثالث: فلسفة التاريخ

«إن التاريخ العلمي يرتبط بنوع آخر من التعاريف التي وضعت في مجال تفسير الحركة التاريخية، وكثيرا ما يحدث تداخل بين الاثنين.

ذلك هو ما يطلق عليه (فلسفة التاريخ).

إن «الفيلسوف» لا «المؤرخ» هو الذي «يجعل فلسفة التاريخ» موضوع تحدياته.

ومع ذلك، فالفيلسوف يلتزم ويعتمد على ما يقوله، وما يقدمه «المؤرخ» عن التاريخ كشيء ملموس كما يلتزم به كرواية أو حدث اجتماعي»[1].

المسألة الثانية: موضوع التاريخ «التاريخ هو الماضي الحاضر»[2]

يدور مدار التاريخ حول الحادثة التي وقعت في الماضي، ولأن هذه الحادثة موضع اهتمام الإنسان سواء أكان هدفه منها الرواية والنقل لأبناء زمانه والأجيال اللاحقة أم الاعتبار والتحليل والتأسيس لحياة أفضل تتجنب عوامل السقوط والانهيار.

ولذا، قالوا: «إنّ التاريخ هو الماضي الحاضر، أي: أن مجموع عوارض الماضي حاضرة بأخبارها (آثارها) وفحص تلك الأخبار عملية تنجز دائما في الحاضر، والتاريخ حاضر بمعنيين:

أولاً: بشواهده، وثانياً: في ذهن المؤرخ»[3].

---

(١) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٣٥.

(٢) مفهوم التاريخ لعبد الله العروي: ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق.

أي: من خلال الشاهدة التاريخية تكوّن في ذهن المؤرخ تاريخ متجدد، ولذا فهو حاضر معه فأصبح يدور بين مقارنة الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي.

من هنا:

كانت معرفة الماضي نسبية وعملية، فهي نسبية لأنها تستجيب لمتطلبات الوضع القائم؛ وهي عملية لأنها تجيب عن أسئلة حالية. ومنهما أي من المعرفة النسبية والعملية كان موضوع التاريخ هو: «التاريخ هو الماضي الحاضر».

في حين ذهب البعض إلى ان مقولة «التاريخ هو الماضي الحاضر». تعني: «أن الماضي التاريخي هو عالم ذهني، يستنبط في كل لحظة من الآثار القائمة.

أو بعبارة أخرى: موضوع التاريخ هو الماضي الذي هو حاضر، المقصود هنا ليس تمام الماضي، وإنما الماضي التاريخي، أو ما سميناه بالتاريخ المحفوظ؛ فهل يمكن أن يكون غير حاضر في الذهن، في الكلام، في الأشياء... الخ»[1].

ينتج عن هذا التحليل: «أن الكلام على أحوال الماضي هو نوع من المشاهدة، إذ لم يبق من الماضي إلا الأخبار الدالة عليه والمعاصرة لنا؛ إن التاريخ هو مجال الاستنباط، إذ المؤرخ يحمل في ذهنه كل الأخبار عن الماضي المحفوظ فيستطيع أن يقارن بينها ويستخلص منها قوانين وعبرا، خلاصة بديهية قال بها جلّ المؤرخين القدامى الذين جعلوا من التاريخ مدرسة أخلاق وسياسة»[2].

إذن: موضوع التاريخ هو استخلاص القوانين والعبر من أحداث وآثار الماضي، وهو بهذا يكون، ـ أي التاريخ ـ مدرسة الأخلاق والسياسة.

(١) مفهوم التاريخ لعبد الله العروي: ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

المسألة الثالثة: علم التاريخ عند العرب

في خضم هذه التعريفات حول التاريخ، من حيث الاصطلاح والمعنى العام، والخاص، والمفهوم، والحركة التاريخية، ما هو علم التاريخ عند العرب؟.

«يكوّن علم التاريخ عند العرب جزءاً من التطور الثقافي العام، وصلته بعلم الحديث وبالأدب بصورة خاصة وثيقة، وتستحق اهتماما خاصا، ثم إن ظهور الإسلام، وتكوين الإمبراطورية، والتصادم بين الآراء والتيارات الحضارية، وتطور الأمة وخبراتها، هذه كلّها حيوية لفهم التطورات الأولى للكتابة التاريخية.

ومع أن علم التاريخ عند العرب ظهر في صدر الإسلام، إلا أن الاستمرار الثقافي يوجب الالتفات إلى تراث ما قبل الإسلام»[1].

«وقد بدأت كلمة التاريخ مسيرها أولا بمعنى التقويم والتوقيت في صدر الإسلام الأول، وبعد أن استعملت الكلمة فترة من الوقت بهذا المعنى، كسبت معنى آخر هو تسجيل الأحداث على أساس الزمن.

وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية: كلمة خبر، وأخبار، وإخباري، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل بالتدريج محل كلمة خبر وأخذت تطلق على عملية التدوين التاريخي، وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الإخبارية.

وكان ذلك على ما يبدو منذ أواسط القرن الثاني للهجرة، فما أن أطل القرن الثالث حتى صارت كلمة التاريخ تطلق على العلم بأحداث التاريخ وأخباره، وبأخبار الرجال، وعلى الكتب التي تحوي ذلك، وحلت نهائيا محل كلمة

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب لعبد العزيز الدوري: ص ١٣.

الخبر والإخباري اللتين انحطت قيمتهما العلمية قبل أن تختفيا من الاستعمال في القرن الرابع[١].

«ولعله من الهامّ أن نلاحظ أن أقدم المؤلفات التي حملت اسم التاريخ كانت كتب أحداث لا تراجم بخلاف الرأي الذي ذكره روزنتال في هذا الصدد.

فقد كتب عوانة بن الحكم الإخباري الكوفي المتوفى سنة ١٤٧/٧٦٥ أو ٧٥٨ كتابا عنوانه: كتاب التاريخ، يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول للهجرة، وهو أول كتاب نعرفه يحمل اسم هذا العلم في الإسلام.

ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤/٨١٩ أيضا كتاب التاريخ وكتابا بعنوان أخبار الخلفاء، وكتب في الوقت نفسه الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦/٨٢١ كتاب التاريخ على السنين وكتاب تاريخ الأشراف الكبير، واستقرت من بعد ذلك التسمية وانتشرت واحتلت عناوين العشرات من الكتب في القرن الثالث للهجرة، ويبدو أن كتب التراجم حملت بدورها عنوان التاريخ في تلك الفترة مع أن بعضها كان يدعى من قبل بالطبقات.

وبالرغم من أن هذه التسمية الأخيرة استمرت وانتشرت إلا أن تسمية البخاري (محمد بن إسماعيل) المتوفى سنة ٢٥٦ لكتابه عن رجال الحديث باسم (التاريخ) تمثل مزجا نهائيا ما بين علم التراجم والأحداث في علم واحد»[٢].

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ٥١، ٥٢.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الثاني

دور القرآن في حركة التاريخ وسننه

بعد أن أخذت حركة التاريخ عند العرب شكلها الذي مرّ بيانه ـ والذي هو عبارة عن ذكر أحوال الماضين في الأندية المكية بأسلوب قصصي عرف باسم (الأيام)؛ يضاف إليه اهتمامهم بالأنساب وتفاخرهم بها، مع ما أفضته ثقافة أهل الجنوب والشمال على هذه الحركة للتاريخ جاء الإسلام ممثلا بالقرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ورد عنهما من مفاهيم حديثة وخاصة بالتاريخ وحركته ودوره وعلاقته بالإنسان والطبيعة والعقيدة، فأعطى منهجا جديدا لهذا العلم، ودفعا حيويا وفعالاً للحركة التاريخية عند العرب ولاسيما أهل مكة.

ويمكن فهم دور القرآن في حركة التاريخ وتطويره من خلال المسائل الآتية:

المبحث الأول: نظرة القرآن إلى الماضي

لقد جاء القرآن «بنظرة جديّة إلى الماضي، وأشار إلى أن ذكريات العرب الماضية محدودة، وعاد إلى بدء الخليقة. وأكد القرآن على أمثلة التاريخ الغابر وعظاته، وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة؛ للتأكيد على العبر الدينية والخلقية التي تنطوي عليها»[1].

(١) نشأة علم التاريخ للدوري: ص ١٧.

«وقد تحدث القرآن الكريم كثيرا عن أساطير الأولين ولا يعني ذلك الأسطورة الخرافية ولكن ما هو مسطور مكتوب لدى الناس، أي ليس بجديد ولكنه مؤرخ معروف من قبل، وهذا يعني أن الجاهليين قد أدركوا ما في القرآن من صلة مع الفكر الديني السابق وما يملأ الجو القرآني بوضوح منه وأنه يروي قصصا وأمورا تاريخية لها كتبها وذكرها المسطور.

كما أن القرآن استطاع أن ينتزع العرب من الإطار القبلي، ومن الجو الوثني ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمثل الجاهلية وبدلهم منها جوا ثقافيا آخر ربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية، أي أعطاهم بعدا زمنيا جديدا قوامه التاريخ الماضي كله، من خلال سلسلة الأنبياء عليهم السلام المتمادية منذ مبدأ الخلق»[1].

ولذا:

نجد القرآن الكريم قد دعا إلى التفكير في أحداث التاريخ، «من خلال استعمال المشاهدة، وتحكيم العقل معا، لتكوين العقيدة، فدعم المدركات العقلية بالشواهد الحسّية، ودعا إلى استكشاف أسرار الخليقة، ومعرفة سنن الاجتماع الإنساني في التطور، وتدبر أحداث الكون.

فالقرآن يعرض صور الحياة، وأحداثها التي جرت على الأمم السابقة ويستخلص منها العبر والحكم ويحذّر الناس أن يقعوا فيما وقعت فيه تلك الأمم، من طغيان مالي، أو استبداد سياسي، وتكذيب وجحود، وعصيان وفسوق، فحاق بهم العذاب»[2].

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ٥٨.

(٢) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٥٣ و ٥٤.

المبحث الثاني: عالمية التاريخ في القرآن الكريم

من المفاهيم التي جاء بها القرآن الكريم والمتعلقة بنظرته للتاريخ هو مفهوم العالمية، وهذا يعني أن القرآن لم يجعل العرب كأمة محصورة ضمن حدودها الجغرافية، والتي تكوّن لها ماضيها المحصور في قصص الأيام وبيوتها القبلية، بل نقلهم إلى حضارات متعددة وأطلعهم على ثقافات متنوعة.

ثم إنه لم يكتف بذلك بل أراد منهم أن يتصدوا لريادة المناصب المتقدمة في صياغة حضارات الأمم السابقة وتطويرها ودفعها، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بموقع الشهودية والوسيطة التي رجع إليها في التزود بعوامل الرقي والتقدم الإنساني والمجتمعاتي.

أ . قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

هذه العالمية للتاريخ التي جاء بها القرآن انعكست على نمط كثير من المسلمين وسلوكياتهم في اكتسابهم للعلوم وحركتهم العالمية فيما بعد.

لكن الحافز والدافع لريادة هذا الموقع العالمي كان من خلال نظرة القرآن لعالمية التاريخ وربط أمة الإسلام بجميع الحضارات السابقة.

وقد تمثلت هذه النظرة القرآنية إلى عالمية التاريخ من خلال توالي النبوّات من آدم عليه السلام إلى الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعرضه لسير هذه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

النبوّات من خلال منهجين أساسين ومؤثرين على النفس الإنسانية وهما؛ القصص والأمثال.

فأما القصص؛ (فإن العروض القرآنية للتاريخ وهي تحدثنا عن مواقف الأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية والتي قد يمتد بعضها إلى خلق آدم.

ويصل بعضها الآخر إلى عدد من التجارب التي مارسها أفراد عاديون سلبا أو إيجابا، أو نفذها قادة وملوك وزعماء كبار يتضح ذلك بالوقائع الخاصة بفرعون وقارون وذي القرنين وأصحاب الفيل مرورا بسلسلة الأنبياء الطويلة التي بعثت ـ كل ذلك ـ لكي تجدد الحوار الموعود، منذ عهد آدم بين السماء والأرض، وتسعى بأقوامها إلى صياغة حركة التاريخ بما ينسجم ومركز الإنسان في الكون.

إن القرآن يبين لنا في حشد آخر من الآيات الهدف من إيراد القصص، والعروض التاريخية، وهو الهدف نفسه الذي يمكن أن يتمخض عن أي مطالعة جدّية ملتزمة لحركة التاريخ)[1].

ب . وعلى الرغم من أن الغرض ـ من القصص ـ (هو الموعظة والاعتبار ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص فتحت بابا من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ، ودخل كرديف ديني شرعي لعمليات التفسير القرآني، وإذا كان الكثير من الإسرائيليات قد دخلت عن هذا الطريق إلى التاريخ الإسلامي، كما دخله الكثير

(١) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٧٣.

من الأخبار القبلية والأجنبية، فأهم من ذلك أن القرآن الكريم منح بذلك نظرة جديدة إلى الماضي، كرّسته كأساس فكري للعقيدة)[1].

(إن قصص الأنبياء عليهم السلام من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن، في الجدال مع مخالفيه، والتبشير برضوان الله، والتحذير من معصيته، وفي شرح مبادئ الدعوة الإسلامية وأهدافها، وفي تثبيت قلب من اتبع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أن الغاية من قصص الأنبياء عليهم السلام أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن المؤمنين برسل الله كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع)[2].

بمعنى: إنّ القرآن نقل التاريخ من محله المحصور ضمن رقعة جغرافية محدودة إلى حضارات نشأت على مواقع متعددة وفي أزمنة مختلفة، بل كانت هذه النظرة القرآنية أوسع وأعمق من ذلك حينما نقل الإنسان خارج حدود الزمان والمكان فربطه بالكون وعواقب الأفعال وتحكم السنن.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[3].

وهو ما دلت عليه الكثير من الآيات القرآنية. قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[4].

---

(١) التاريخ والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ٦٠.

(٢) النظرية القرآنية لحسن سلمان: ص٧٤، نقلا عن: مع الأنبياء في القرآن ـ عفيف عبد الفتاح: ص٢٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢ و سورة الفتح، الآية: ٢٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾[1].

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾[3].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[4].

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

أما منهج الأمثال الذي جاء به القرآن الكريم للتعبير عن نظرته العالمية للتاريخ فقد جعل منها مادة خصبة لنمو الحركة التاريخية وشموليتها العالمية منذ آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم من جانب، ومن جانب آخر دفع الفكر الإنساني إلى أثر هذه الحركة العالمية للتاريخ في رسم المستقبل القريب والبعيد للأمة الإنسانية ولاسيما المسلمة بصفتها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[7].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٦) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

كما أن هذا المنهج القرآني أعطى بنية جديدة لحركة الإنسان في الحياة الدنيوية والأخروية، من خلال تحريك البنيوية العقلية ودفعها نحو التفاعل مع القنوات المعرفية، أي ربط الإنسان بكل ما يدور من حوله كي يرسم حياة كريمة مفعمة بالخير والسلام.

يقول السيد العلامة الطباطبائي:

(تصريف الأمثال ردها وتكرارها وتحويلها من بيان إلى بيان ومن أسلوب إلى أسلوب ـ غاية ذلك ـ أن يوضح لهم سبيل الحق ويمهد لهم طريق الإيمان والشكر)[1].

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[2].

بل يظهر القرآن الكريم انحصار من لا يعتبر بهذا النهج القرآني وهم الكفار، فيتحولون من المحور العالمي إلى المحور الفردي المتقوقع والمهمل من خلال تغليب الجهل على العقل وحجره وعزله عن التفكير في هذه المناهل المعرفية الممثلة بالأدلة والحجج التي ضمها منهج القرآن عند إيراده للأمثال.

فيعطي صورة واضحة الملامح لمستقبل هؤلاء وترديهم وانحطاطهم حينما يتولد عندهم النفور من هذه الحضارة القرآنية وهذا النهج التعليمي لاكتساب العلوم.

---

(١) تفسير الميزان لمحمد حسين الطباطبائي: ج ١٣، ص ٢٠٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤١.

المبحث الثالث: نظرة القرآن للسنن التاريخية

المسألة الأولى: حقيقة سريان السنن التاريخية في الأمم

لا تختلف العلوم التطبيقية عن الإنسانية في الوجود الحياتي، هذا الوجود الذي نشأ وتبلور فيه النهوض على السنن والقوانين الخاصة بتلك العلوم سواء أكانت رياضية، منطقية، مجردة عن الحس الوجداني كونها مادة؛ أم العلوم التي اختلجت في مكوناتها الوجودية في الحس الوجداني الإنساني فاقترن بقاؤها ببقاء الإنسان.

والقرآن الكريم حينما يدعو العقل البشري إلى النظر والتأمل والتفكير في خلق السموات والأرض والآفاق وما تشابك في قيامها من سنن وقوانين فيزيائية ورياضية وغيرها ـ هو في نفس الوقت ـ يدعوه إلى النظر والتفكير في نفسه وخلقه وما ارتبط بينه وبين العوالم السماوية والأرضية بسنن وقوانين كان المؤثر الأكبر في تحريكها عمل الإنسان بشقيه الخير والشر.

بمعنى أن هذا العمل محكوم بسنن كونية قائمة في الحياة لا تتعدى أحدا من البشر حالها حال السنن الفيزيائية والمنطقية الرياضية، وهو ما قدمه القرآن ضمن عنوان السنن التاريخية.

قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

وقال سبحانه:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾(١).

وقال عز وجل:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

وقال عز شأنه:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(٣).

وغيرها من الآيات التي أظهرت آثار السنن التاريخية في مسيرة الحياة الإنسانية.

ولقد (تبلورت الفكرة القرآنية للسنن التاريخية في عدد كثير من الآيات والمقاطع القرآنية بأشكال مختلفة وصور متعددة، وألسنة متباينة.

ففي بعض هذه الآيات أعطيت الفكرة بشكلها وصياغتها الكلية؛ فيأتي التعبير القرآني حول الفكرة مجملا عاما، وفي بعض الآيات الأخرى أعطيت الفكرة القرآنية على مستوى التطبيق على المصاديق والنماذج، وفي بعضها الآخر وقع الحث على الاستقراء والفحص الاستقرائي والتتبع العلمي للشواهد التاريخية من أجل الوصول إلى القانون التاريخي)(٤).

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٤) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٨٧.

فكان من بين بنود هذا القانون التاريخي في القرآن هو عاقبة سلوك التجمعات البشرية التي عبر عنها القرآن بـ(الأمة) أو (الأمم) التي كانت قبل أمة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

والغرض في هذا العرض القرآني لعاقبة المجتمعات السابقة هو الغرض الإرشادي، بمعنى أن الأفعال الجماعية والصفات الغالبة على بعض المجتمعات كقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم كما في بني إسرائيل؛ واكتفاء الرجال بالرجال كما في قوم لوط، والإعراض عن الدعوة وعدم الاستجابة للنذير كما في قوم نوح عليه السلام؛ ونكران الخليفة والوصي واتباع السامري كما في قوم موسى عليه السلام وغيرها من الأفعال الجماعية التي سلكتها الأمم السابقة كلها تعبر عن سنن تاريخية جرت في هذه الأمم فأظهرت للمسلمين وغيرهم أن عاقبة هذه الأفعال الجماعية تكون جماعية الوقوع.

بمعنى أن العقاب سيقع على الجميع دون استثناء، وإن كان هناك تفاوت في صدور الأفعال من بعض الناس؛ فالساكت عن الظلم وفاعله سواء، بل أبعد من ذلك الرضا بفعل الظالم اشتراك في الظلم، كما دلت عليه مجموعة من الآيات. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢١.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤.

وقال عز وجل:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١).

المسألة الثانية: تحقق الغرض الإرشادي في عرض السنن التاريخية

وقد أظهر القرآن الكريم الغرض الإرشادي في إيراد السنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾(٢).

وقال عزّ شأنه:

﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(٣).

وقال سبحانه:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٤).

فهنا: تظهر الآية الكريمة اشتراك الفرد مع الأمة في الأجل الواحد، في حين أن لكل فرد أجلاً خاصاً به، فما هو سبب اشتراك جميع أفراد الأمة في موت واحد ونهاية واحدة؟.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

يجيب السيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ : (هناك دائما وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه الفردي، هنالك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المستندة بمجموعة من القوى والقابليات)(١).

بمعنى آخر: (هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن بالأمة، له أجل، له موت، له حياة، له حركة كما للفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت، وكما أن موت الفرد يخضع لقانون معين، كذلك الأمم أيضاً لها آجالها التي تخضع لقوانين معينة)(٢).

وهذا الذي أراده القرآن من المسلمين بوصفه كتابهم الذي يرجعون إليه في معرفة دينهم أن يلتفتوا إلى تلك القوانين التي خضعت لها الأمم السابقة ولم يكن لها أن تتفلت من سطوتها؛ فليس الفرد حينما يكون ضمن مجتمع معين أن يحيا أو يموت أو ينمو بمعزل عن الأمة التي ينتمي إليها.

إذ قد يظن الكثير بأنه بمنأى عن عواقب انحراف الأمم والجماعات التي يعيش معها وينتمي إليها بل: لعلنا نجد أن هذه الحالة قد أخذت مآخذها من الأمم المعاصرة، في حين يعرض القرآن الكريم حتمية إجراء هذه السنن في الأمم كافة؛ فقد يموت الإنسان قبل موت الأمة ألا أنه يفنى في ماله وذريته فيكون حينها قد مات مع الأمة التي ينتمي إليها، ناهيك عن ما يحمله من الآثام التي شارك الأمة فيها.

---

(١) سنن التاريخ في القرآن لسيد محمد باقر الصدر: ص ٥٧.

(٢) النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ لحسن سلمان: ص ٩٠.

المسألة الثالثة: علّة تأخير العقوبة الجماعية

لكن القرآن الكريم في الوقت الذي يتحدث عن تلك السنن التاريخية وما تؤول إليه عواقب الأعمال الفردية والجماعية، هو في نفس الوقت يتحدث عن سنن أخرى هي تأخير العقوبة الجماعية لحكمة خاصة، منها الرحمة والمغفرة؛ ومنها (الإصلاح) وهو الغاية المنشودة في عرض سيرة الأمم السابقة وما آلت إليه عواقب أفعالها. قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا * وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾[2].

(ففي هاتين الآيتين الكريمتين، تحدث القرآن الكريم، عن أنه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم، وبما كسبوا، لما ترك على ساحة الناس من دابة، يعني لأهلك الناس جميعا، وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوير هذا المفهوم القرآني، حيث أن الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة، ففيهم الأنبياء، وفيهم الأئمة، وفيهم

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨ و ٥٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

الأوصياء، هل يشمل الهلاك الأنبياء والأئمة العدول من المؤمنين؟ حتى أن بعض الناس استغل هاتين الآيتين لإنكار عصمة الأنبياء عليهم السلام.

والحقيقة أن هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوي لا عقاب أخروي، فالآية تتحدث هنا عن النتيجة الطبيعية لما يكسبه أفراد المجتمع على اختلاف هوياتهم وعلى اختلاف اتجاهاتهم، حينما وقع (التيه) على بني إسرائيل إنما شمل موسى عليه السلام، شمل أطهر الناس وأزكاهم وأشجعهم في مواجهة الظلمة والطواغيت، شمل موسى عليه السلام لأنه جزء من تلك الأمة.

هذا كله هو منطق سنن التاريخ، والعذاب حينما يأتي في الدنيا على مجتمع وفق هذه السنن، لا يختص بخصوص الظالمين من أبناء ذلك المجتمع، ولهذا قال القرآن الكريم في آية أخرى:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1].

بينما يقول في موضع آخر:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2].

فالعقاب الأخروي دائما ينصب على العامل مباشرة، وأما العقاب الدنيوي فيكون أوسع من ذلك.

إذن هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن سنن التاريخ وما يمكن أن يحصل نتيجة كسب الأمة وسعيها وجهدها، لا عن العقاب بالمعنى الأخروي، والعذاب

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الفاطر، الآية: ١٨.

بمعنى مقاييس يوم القيامة)[١]. ويمضي القرآن الكريم في عرضه للسنن التاريخية وعلاقتها بالإنسان والمجتمع فمنها:

المسألة الرابعة: سنة التغيير النفسي وارتباطها بتغيير المجتمع

من السنن التاريخية التي أظهرها القرآن الكريم هي سنة التغيير النفسي وعلاقتها بالمجتمع؛ هذه العلاقة التي يظهرها القرآن على هيئة قانون مؤثر في إصلاح الأمم، بل يظهر مفهوما أعم من ذلك؛ وهو ارتباط الإصلاح المجتمعي بالإصلاح الفردي.

بمعنى: لا يمكن أن تنهض الأمة ما لم تبدأ بإصلاح أفرادها، أو من أراد أن تكون أمته التي ينتمي إليها وقومه الذين ينتسب إليهم أمة صالحة، فعلية أن يبدأ بمشروع التغيير الشخصي، أي أن يبدأ بتغيير نفسه أولا ثم أهل بيته ثم أقربائه وهكذا، وهو ما دل عليه قوله تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٢].

والعلة في هذا الترابط، وهذه العلاقة هو أن: (المحتوى الداخلي النفسي والروحي للإنسان هو القاعدة، ـ وإن ـ الوضع الاجتماعي هو البناء العلوي، وأن هذا البناء العلوي لا يتغير إلا وفقا لتغير القاعدة.

إذن: هذه الآية تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلوي بين الوضع النفسي والروحي والفكري للإنسان وبين الوضع الاجتماعي، بين داخل

(١) السنن التاريخية في القرآن لمحمد باقر الصدر ﵀: ص ٥٤ و ٥٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

الإنسان وبين خارجه، فخارج الإنسان يصنعه داخل الإنسان، فإذا تغير ما بنفس القوم تغير ما عليه وضعهم، وعلاقاتهم، والروابط التي تربط بعضهم ببعض، ولذا: فهذه سنة من سنن التاريخ، ربطت القاعدة بالبناء العلوي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[(١)])[(٢)].

المسألة الخامسة:

آثار سنة الاستقامة وتطبيق أحكام الله على الفرد والأمة

كثيرة هي السنن التاريخية التي يعرضها القرآن الكريم، إلا أننا أجملنا في ذكرها واكتفينا ببعضها كي ينسجم ذلك مع ما شهدته الحركة التاريخية عند المسلمين وعوامل تطوّرها، ومنها الدور المميز للقرآن الكريم في تجديد الفكر العربي، ونموه بشكل خاص، والإنساني بشكل عام.

ولذا كان القرآن قد تصدر الكتب السماوية في بيانه لهذه السنن التاريخية وآثارها على الفرد والمجتمع فكان منها: سنة الاستقامة وتطبيق أحكام الله تعالى على الفرد والمجتمع؛ وهي سنة تاريخية لعبت دوراً مهما في تحديد مصير الإنسان والأمة. قال تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٢) السنن التاريخية في القرآن لمحمد باقر الصدر: ص ٥٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

وقال عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقال عزّ شأنه:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[2].

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

(هذه الآيات تتحدث عن علاقة معينة بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه، وبين وفرة الخيرات ووفرة الإنتاج، وبلغة اليوم: بين عدالة التوزيع وبين وفرة الإنتاج. فالقرآن يؤكد أن المجتمع الذي تسوده العدالة في التوزيع، التي عبر عنها القرآن تارة بـ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، وأخرى بـ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾، وأخرى بـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ـــ هو المجتمع المتقدم والمعافى من الأمراض والانحرافات ـ.

لأن شريعة السماء نزلت من أجل تقرير عدالة التوزيع، وإقامتها على أسس عادلة، يقول: لو أنهم طبقوا عدالة التوزيع، إذن لما وقعوا في ضيق من ناحية الثروة المنتجة، بل لازداد الثراء وازدادت الخيرات والبركات، لكنهم تخيلوا أن عدالة التوزيع تقتضي التقسيم، ومن ثم تقتضي فقر الناس.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

بينما الحقيقة أن السنة التاريخية تؤكد عكس ذلك، تؤكد بأن تطبيق شريعة السماء وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع، تؤدي دائما وباستمرار إلى وفرة الإنتاج وإلى زيادة الثروة، إلى أن يفتح على الناس بركات السماء والأرض)[1].

أقول: هذه السنة التاريخية التي يعرضها القرآن الكريم والتي جرت في الأمم السابقة هي أيضا ممكنة الوقوع في هذه الأمة.

ولذا: نجد القرآن قد قرن نتائجها باتباع أحكام الله عز وجل، بمعنى: أن الأمة لو استقامت في سلوكها واتبعت أحكام الله تعالى لنالت بركات السماء والأرض؛ بل لحَيَتْ حياة لم تحيها أمة من الأمم، وهذا نفسه كان حتمي الوقوع والنتائج في الأمم السابقة فيما لو استقامت في سيرها وسلوكها.

كما: إن الأمر غير محصور في عدالة التوزيع فقط كما ذهب إليه سماحة السيد الشهيد السعيد قدس سره بحيث لو أن الأمم قد استقامت في عدالة التوزيع إذن لما وقعوا في ضيق من ناحية الثروة المنتجة، وإنما الأمر يتعداه إلى أبعد من ذلك وهو تقديم عقيدة الآباء على أحكام السماء بشكل عام كما دلت عليه الآية.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2].

فمخالفة الأمم أحكام الله واتباعهم لمعتقدات آبائهم هو الذي حرمهم من أن يسقوا ماءً غدقا. نعم، عدالة التوزيع إن تمت في أي أمة من الأمم حتى ولو لم تكن على دين سماوي يؤدي ذلك إلى ازدياد الخيرات، والتاريخ قديماً وحاضراً مليء بالشواهد التي تدل على أثر عدالة الحاكم في نمو خيرات بلده.

(١) السنن التاريخية في القرآن للسيد الشهيد لمحمد باقر الصدر: ص ٦٠ و ٦١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

الفصل الثالث

حركة التاريخ وسننه عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يشغل التاريخ حيزاً واسعاً في علوم أهل البيت عليهم السلام، والسبب في ذلك يعود إلى اهتمام القرآن أولاً بعلم التاريخ، وثانياً لكونه مدرسة كبيرة لمن أراد أن ينطلق لبناء الحياة الدنيا وينجو في الآخرة.

فالتاريخ كما يعرضه القرآن والعترة:

هو خزين لتجارب الأمم مع الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين بعثوا إلى هذه الأمم، والتاريخ هو ساحة للصراع بين الخير والشر، وهو نماذج عديدة ومتنوعة من العقول البشرية، ورصيد ضخم من الفكر السياسي والقيادي لهذه الأمم، ناهيك عن تجارب في الاقتصاد كما في قضية يوسف أثناء توليه خزانة مصر.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وفي الاجتماع وعوامل رقيّه وفساده كقوم لوط.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٠ ـ ٨١.

وفي الوعي الثقافي والفكري كقوم إبراهيم في أرض بابل حينما كانت الاتجاهات العقائدية والفكرية متنوعة بين عبادة الشمس والقمر والنجوم.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

وبين عبادة الأصنام؛

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وبين قدرة إبراهيم عليه السلام في نفوذه إلى تلك العقول بعقيدة التوحيد فمرة ينفذ إلى عقول معتقدي عبادة الأصنام فيكسرها إلا كبيرهم.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[3].

ومرة ينفذ في حواره العقائدي مع النمرود حينما أوقف منافذه الفكرية بآية خروج الشمس من المشرق وتعجيزه أن يأتي بها من المغرب.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨ ـ ٦٣.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

وفي الجانب السياسي والقيادي للأمة كما في استخلاف هارون عليه السلام.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾(٢) ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

ناهيك عن الخزين الضخم من التجارب المتنوعة في المجالات المختلفة والمحصورة بأشخاص كمؤمن آل فرعون، ومؤمن آل ياسين، وآسية بنت مزاحم، وأصحاب الكهف، وهابيل وقابيل، ومريم ابنة عمران صلوات الله وسلامه عليها، وغيرها.

كل ذلك وغيره مما لم نستطع الإحاطة به كان مداعاة لأن يشغل التاريخ حيزا واسعا في علوم أهل البيت عليهم السلام لاسيما وان حركة التاريخ وسننه تبدأ عند أهل البيت عليهم السلام من سراجهم المنير وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف كانت حركة التاريخ وسننه عنده؟.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) سورة طه، الآية ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

المبحث الأول: حركة التاريخ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

من البديهي أن يهتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحركة التاريخ وهو يرى الوحي قد نزل على قلبه بهذا الكم الكبير من الآيات التي تخبره عن الحركة التاريخية والسنن التاريخية لمختلف الأمم التي خلقها الله تعالى، إذ لا يخفى أن القرآن يعرض الحركة التاريخية للأمم الأخرى غير الأنس، كالملائكة وسجودها لآدم، والشياطين ودورها في انحراف الأمم. ولذا تبدأ هذه الحركة منذ خلق آدم عليه السلام.

بل القرآن يتحدث عن الحركة التاريخية للعلوم ونشوئها وتطورها، كمراحل خلق السموات والأرض، ومراحل النشأة والتكوين للعناصر الحياتية على الأرض، وتاريخ تكوّن الأعراق البشرية، واختلاف الألوان والألسن، وغيرها مما لا حصر له، فما من علم إلا وله بداية نشأ منها وانطلق من عندها ليكوّن بذلك سجلا تاريخياً يدون فيه سير هذه الحركة التاريخية لهذا الصنف من العلم أو ذاك، ولهذه الأمة أو تلك.

ومن هنا: ظهرت الحركة التاريخية عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسعة وعميقة، فقد روى احمد في المسند عن عمران بن حصين: "كان نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظيم صلاة"(١).

ويبدو أن السبب في تركيز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على بني إسرائيل لعدة أمور، منها:

---

(١) مستدرك الحاكم ـ النيسابوري: ج٢، ص٣٧٩. البداية والنهاية لابن كثير: ج ٢، ص ١٥٧، وقال: رواه أبو داود عن قتادة، عن أبي حسان، عن عبد الله بن عمرو. والحديث رواه البزار من هذا الطريق، ومن طريق عمران بن حصين.

١ ـ تعاقب عدد من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم.

٢ ـ تنوع الجوانب الحياتية لديهم باختلاف الأزمنة التي بعثت بها أنبياؤهم؛ بمعنى أن كل فترة زمانٍ أو مكانٍ هو عبارة عن سجل تاريخي للحركة البشرية.

٣ ـ اختلاط اليهود بالمسلمين وتشكيلهم نسبة جيدة من الجغرافية العربية التي تعددت فيها المعتقدات، فقد ظهرت في الجزيرة والعراق واليمن والشام مجموعة من المعتقدات.

٤ ـ قرب زمانهم من زمان بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا يدل على استيعاب المسلمين لأثر السنن التاريخية التي مرت بها مجتمعات بني إسرائيل.

٥ ـ نفوذ الثقافة اليهودية والنصرانية في أندية المدينة بشكل خاص.

٦ ـ تجدد العوامل الفاعلة في حركة السنن التاريخية في أمة المصطفى ﷺ.

وهو الأمر الذي كان ينبه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يحذر المسلمين منه، بعد أن لاحظ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن العديد من أسس السنن التاريخية بدأت تتحرك في أمته.

ولذا أراد حفظهم من عدم تحقق هذه السنن التاريخية كي لا تحصد الأمة ما سيترتب على هذه السنن من نتائج.

ومن هنا: نجده صلى الله عليه وآله وسلم كان يحدث المسلمين عن تلك السنن التاريخية التي جرت في بني إسرائيل، كي يحذرهم منها ويأمنوا من عدم الوقوع بها. وهو في نفس الوقت أعطى خزيناً تاريخياً وعاملاً نهضوياً في قيام الحركة التاريخية عند المسلمين.

المبحث الثاني: السنن التاريخية عند رسول الله صلى الله عليه وآله

لم يغب عن ناظر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم المنهج الذي قدمه القرآن في إصلاح الأمم من خلال وضع العديد من السنن الإلهية في الحياة الإنسانية والتي عرفت فيما بعد وحسب اصطلاح المؤرخة بالسنن التاريخية؛ فهذه السنن لم تكن تغب عن ناظر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ولذا كان يحدث المسلمين ويبين لهم تلك القوانين الإلهية التي تحكمت في مصير الأمم السالفة ولاسيما بني إسرائيل الأقرب عهدا بأمة الإسلام والأكثر احتكاكا وتعايشا، وربما فهما واستيعابا لتلك النتائج التي تمخضت منها هذه السنن التاريخية.

وحيث إن الطبيعة البشرية هي هي، تتأثر بالمتغيرات الحياتية والفكرية وحيث إن عناصر الشر والخير متأصلة ومتنامية في جميع الأمم كان لزاما على هذه الأمة أن تحيي تلك السنن التاريخية والقوانين الحياتية التي عاشتها الأمم السابقة.

ومن هنا: نجد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ولاسيما في السنة الأخيرة من حياته الشريفة يحذرهم من اتباع تلك السنن التاريخية؛ بل يظهر الحديث الشريف أنه كان يرى أن هذه الأمة قد سلكت سبيل السنن التاريخية للأمم السابقة لا محالة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتموه»!.

قالوا: فاليهود والنصارى يا رسول الله؟. قال:

فمن أذن»[1].

(١) الرسائل العشر للطوسي: ص١٢٧. وقريب منه في: المصنف لابن أبي شيبة: ج٨، ص٦٣٦.

وفي لفظ آخر أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه.

قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟. قال:

فمن»[1].

وفي لفظ أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع.

فقيل يا رسول الله: كفارس والروم؟. قال:

ومن الناس إلا أولئك»[2].

هذه التحذيرات التي أطلقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في اتباع هذه الأمة السنن التاريخية للأمم السابقة ولاسيما بني إسرائيل كانت محفزا قويا عند المؤرخين العرب في معرفة تاريخ اليهود والنصارى وما جرى في أحوالهم من هذه السنن الإلهية (التاريخية).

ومما ساعد على نمو هذه الحركة التاريخية والمعرفية هو (ظهور جماعة من أهل الديانة اليهودية والمسيحية تتصدى بعد إسلامها لإذاعة تلك المعارف، ــ وهم الذين ــ يسميهم ابن إسحاق بـ(أهل العلم الأول).

ويذكرون عن وهب بن منبه أنه قرأ من كتب الأنبياء كتبا يختلف عددها في الروايات بين ثلاثين وبضعة وسبعين أو اثنين وتسعين كتابا.

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، ج ٤، ص ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ج ٨، ص ١٥١.

وهذا على الأقل يعني توفر هذه الكتب في المناطق من الجزيرة والشام والعراق، في القرن الأول الهجري ولو أنها كانت في معظمها على ما يظهر بالسريانية والعبرانية؛ وقد دخل الكثير منها في معلومات هذه الكتب على التاريخ العربي حتى لقد عرفت آثارها في التاريخ، وفي علوم الدين باسم خاص هو: الإسرائيليات.

ويبدو مما وجد من أوراق البردي الإسلامي أن ترجمة هذه الأمور والنصوص إلى العربية قد تمت في أوائل القرن الثامن الميلادي أو أواخر القرن الأول الهجري)[1].

فهذه الأسباب هي التي كانت وراء دخول المعارف التاريخية التوراتية الإنجيلية إلى الثقافة الإسلامية ولاسيما التاريخ والحديث، وهو الأمر الذي يفند المزاعم التي أطلقها المستشرق روزنتال في بحث كتبه عن (أثر التقاليد التوراتية الإنجيلية في التاريخ لدى المسلمين).

والذي يدعي فيه:

(أن فكرة التاريخ في الكتاب المقدس قد أثرت في النبي، وأن العلماء المسلمين قد استخدموا هذه النظرة التاريخية العالمية في إنتاج مؤلفات تاريخية شاملة، وأنهم أغنوا تلك المؤلفات بمواد تاريخية مأخوذة عن الكتاب المقدس والآثار التوراتية ـ الإنجيلية، وأن ثمة أخيرا توازيا وتشابها في (شكل) تقديم تلك المواد بين النصوص التاريخية التوراتية والإسلامية)[2].

(١) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ١٠٧.

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ١٠٧ و ١٠٨.

في حين أن الدافع الذي دفع المسلمين إلى قراءة التاريخ والآثار اليهودية الإنجيلية هو ليس ما تحتويه هذه الكتب من مادة تاريخية، وإنما الأحاديث النبوية التي أطلقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في اتباع أمته سنن الأمم السالفة ولاسيما بني إسرائيل؛ فكان الخوف من الوقوع في هذه السنن ومحاولة تجنبها والنجاة منها هو المحفز الأول في قراءة هذه الآثار التوراتية الإنجيلية، وإلا هذه الآثار كانت موجودة قبل الإسلام لكنها لم تأخذ من الوعي التاريخي عند العرب أي اهتمام يذكر كما يدعي روزنتال.

(ويثير روزنتال بعض التساؤلات حول أي نوع من النصوص ـ التوراتية الإنجيلية ـ نقل إلى العربية هل هو بعض الفرق المسيحية أو اليهودية المعنية أم هو أشكال محورة عن النصوص الأهلية لذلك القصص القديم، ويضيف أنه من المقبول عامة لدى الباحثين المحدثين أن معظم المواد التاريخية التي أخذها المؤرخون (منذ أواخر القرن الثالث فما بعد) كما اتضح لدى الطبري وحمزة الاصفهاني والبيروني واليعقوبي، إنما ترجع إلى كتاب «المدارش والهاغاداه»[(١)] لدى اليهود والنصارى، ولكنها خضعت للكثير من التعديل؛ ومثل ذلك قصص الأنبياء.

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ١٠٨، وجاء فيه (المدارش) هي: التفاسير الأولى للتلمود وهي أساس المثنا الذي نسقه الحاخامون بعد القرن الثاني الميلادي وأما (الهاغاداه) فكتب التهجد والوعظ.

وهناك الجمارة، وهي: جمرة المناظرات والتعاليم والتفاسير التي جرت في المدراش، أي: أماكن تدريس الكتاب المقدس في الكنيس (وجذر كلمة مدراش = دراسة ومدرسة) وذلك بعد انتهاء جمع المثنا.

وما أراد روزنتال أن يعدّه تأثيرا ونقلا إنما يرجع في الواقع إلى حقيقة مسبقة وهي أن القرآن جاء ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وأن الإسلام لم ينكر وجود العقائد الدينية السابقة ولكنه رفض استمرار الإيمان بها بعد ظهوره، ووحدة الرسالة منذ إبراهيم أبي الأنبياء، وعبر الأنبياء المتعددين حتى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آخر النبيين، إنما كانت تقتضي هذا النوع من التطابق مع الفكر التاريخي للتوراة والإنجيل، وهذا النوع من المقبول للمادة التاريخية الناجمة عنها)[1].

بل إن السبب في التشابه بين المادة التاريخية اليهودية ـ الإنجيلية ـ وبين المادة التاريخية الإسلامية هو ليس هذا النقل الذي تم من خلال ترجمة كتابي «المدارش والهاغاداه» ودخول هذه الثقافة إلى الفكر الإسلامي، إنما هو تحقق قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في اتباع هذه الأمة سنن بني إسرائيل لدرجة الشبر بالشبر والذراع بالذراع؛ بل لو دخل أحدهم في حجر ضب لدخله المسلمون!.

هذا الانطباق الواقعي للسنن التاريخية بين بني إسرائيل والمسلمين لاسيما ابتداء تحقق ذلك بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وانقسامهم على ثلاث وسبعين فرقة في هذا الزمن وانتشار الفكر التكفيري فيما بينهم هو الذي خلق هذا التصور الذي ذهب إليه روزنتال وغيره من المستشرقين والباحثين في نشأة التاريخ العربي والإسلامي وحركته وتطوره.

إذن: مثلما ركز القرآن الكريم على نفوذ السنن التاريخية في الأمم السابقة كذلك كان حالها عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ص ١٠٨.

الفصل الرابع

حركة التاريخ وسننه عند الإمام علي عليه السلام

لكي نضع أيدينا على تطور الوعي التاريخي عند العرب فلابد أن ندرك دور القرآن وعترة النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في تدريس هذا العلم وتطويره.

بل: إنهم أصحاب الفضل الأول بعد القرآن في خلق هذا الوعي التاريخي وتطويره وتثقيفه بين أهله ـ كسليم بن قيس ومحمد بن إسحاق المطلبي ـ حتى جعلته يحتل الصدارة في هذا العلم.

ولذا كان لزاما أن نعرّج على مدرسة الإمامة، ونهبط عند أعتاب باب مدينة علم النبوة، وأن نجلس بين أروقة مدرسة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لنفهم كيف هو التاريخ عنده، حركة وسنة؟.

المبحث الأول: حركة التاريخ عند الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ

يتخذ الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من حركة التاريخ وسيلة لتقويم السلوك الإنساني وأداة لإصلاح المجتمعات؛ هذا الإصلاح الذي لا يتم إلا من خلال إصلاح أفراد المجتمع أو الأمة كما يعبر عنها القرآن الكريم.

وتمتاز علاقة الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بحركة التاريخ عن غيره ممن يهتمون بالتاريخ بأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يتعايش مع هذه الحركة وكأنه عنصرٌ من عناصر هذه الحركة، وواحد من مكوناتها، فما أن مرّ على أمة من الأمم تحدث عنها وكأنه أحد أفرادها المبصرين بأحوال أمته.

ولذا لم يكن ـ حينما يتحدث عن هذه الأمة أو تلك ـ بالرجل القاص، أو الراوي المتسلي؛ وإنما هو الرجل المعايش لهذه الأمة والعارف بعوامل نهوضها، أو اندثارها، المتبحر في أخلاقها وسلوكها.

ومن هنا: نجده يحثّ على التعامل مع التاريخ تعامل المرشد، والمصلح، والمقوّم لحركة الإنسان الدنيوية والأخروية؛ مما جعل بعض الباحثين ينظرون إلى هذه العلاقة بأنها (علاقة وعظية)[1]، أي أن الغالب في حديثه عليه السلام عن التاريخ هو الوعظ.

في حين أنه عليه السلام لم يكن ليخالف المنهج القرآني والنبوي ـ الذي عرضناه ـ في بيان حركة التاريخ وسننه، وهو الأمر الذي يمكن ملاحظته بشكل واضح في خطبه وحديثه عن حركة التاريخ وسننه.

ففي حركة التاريخ يقول عليه السلام وهو يوصي ولده الإمام الحسن عليه السلام:

«أي بنيّ إني وإن لم أكن عُمَرّتُ عُمُرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم، حتى عُدتُ كأحدهم، بل كأني انتهى إليّ من أمورهم، ما قد عُمِّرتُ مع أولهم إلى آخرهم، فعرفتُ صفو ذلك من كدرِه، ونفعه من ضرره»[2].

وهنا نلاحظ رصده الدقيق لحركة التأريخ منذ أن وُجد الإنسان على هذه البسيطة وإنه جمع هذه المعرفة من خلال النظر في أعمال الأمم أفراداً وجماعات، وفكّر في أخبارهم التي دأب المؤرخون على عرضها دون الفكرة في أحوالها، فامتاز عنهم بالنظر والفكر والسبر في من آثارهم حتى أصبح كأحدهم. بل لدرجة انّه

(١) حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، محمد مهدي شمس الدين.

(٢) نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٤١. تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص٧٠. كشف المحجة للسيد ابن طاووس: ص ١٦١.

أصبح له من المعرفة بتاريخ هذه الأمم وأحوالها وكأنّه عمّر مع أولهم إلى آخرهم، ليخرج بمحصلة لهذا كله بأنه أصبح الخبير المتمرس والعارف الحاذق بصفو الحياة الماضية من كدرها ونفعها من ضررها. وبمعنى أدق: أصبح العارف بصفو التأريخ من كدره ونفعه من ضرره.

هذه المعرفة الواسعة والشاملة والعميقة والدقيقة بالتاريخ حركة وسنة ـ كما سيمر علينا ـ كان لها الأثر الفعال في نمو الوعي التاريخي عند المسلمين ولاسيما رواد مدرسة العترة النبوية الطاهرة عليهم السلام كـ(سليم بن قيس الهلالي، وجابر بن يزيد الجعفي، ومحمد بن إسحاق المطلبي شيخ كتّاب السيرة النبوية) وغيرهم.

المبحث الثاني: السنن التاريخية عند الإمام علي عليه السلام

لقد امتازت نظرته عليه السلام إلى السنن التاريخية بميزات عديدة منها:

١ ـ الإحاطة بهذه السنن منذ ابني آدم إلى أمة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ تحديد العامل المشترك في جميع هذه السنن وهو طاعة الله عزّ وجلّ ومعصيته.

٣ ـ تشخيص ما تؤول إليه هذه الأمة من اتباعها السنن التاريخية التي سارت عليها الأمم السالفة.

٤ ـ الدور الإرشادي لهذه السنن في إصلاح المجتمع.

المسألة الأولى: الإحاطة التامة بالسنن التاريخية

ومن الشواهد على الميزة الأولى، قال عليه السلام:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ أَيْنَ

الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ وَهَزَمُوا بِالأُلُوفِ وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ»؟[١].

فهذه النظرة المحيطة بالسنن التاريخية التي تهاوت بفعلها تلك الأمم فلم تبق منها سوى الأساطير هي في الواقع تصرخ بالقادم من الأجيال إلى الحذر من الوقوع في مهالك تلك الأمم حينما لم يراعوا قوانين السماء وما جاءت به الأنبياء من شرايع.

وفي شاهد آخر يقول عليه السلام:

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأَحْوَالِ وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالِ»[٢].

وفي شاهد آخر يقول عليه السلام:

«تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَمَهَافِي الرِّيحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لاَ يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلاَ إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاَءِ أَزْلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ»[٣].

وهنا يتحدث عليه السلام عن حال العرب في الألف الأولى قبل بعث النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أي ما بين موسى عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: خطبة في تنزيه الله، ج ٢، ص ١٠٨، خ ١٨٢.

(٢) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: الخطبة القاصعة، ج ١٣، ص ١٧١.

(٣) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: خطب الإمام علي عليه السلام، ج ٢، ص ١٥٣.

وشمال أفريقيا مصر وما جاورها، وأهل مكة وما يحيط بها من مدن، كيف كان حالهم؟ وما هو دور السنن في رسم حياتهم؟.

أنهم كانوا مشتتين مفرقين حينما كانت ملوك الفرس في الشرق، وأباطرة الروم في الغرب، تتحكم بهم وتقبض على أنفاسهم وأرواحهم وتنهب خيراتهم، كانوا يزرعون ليأكل الأكاسرة والقياصرة بينما هم مدفوعون عن خضرتهم إلى منابت الشيّح ومهافي الريح (أي عنب الصحراء) ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، أخوان دبرٍ ووبر (أي: تحت الخيام التي تصنع من شعر الإبل وهو الوبر) أذل الأمم داراً وأجدبهم قراراً.

ثم يمضي عليه السلام في بيان حال العرب قبل أن يمنّ الله عليهم بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكيف يصبح حالهم بعد أن بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقول عليه السلام:

«فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ وَ جَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا وَ أَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا وَ الْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ وَ فِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ وَ آوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ وَ تَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ وَ مُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ وَ يُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ وَ لاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ»[1].

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: الخطبة القاصعة، ج ٢، ص ١٥٤. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ١٤، ص ٤٧٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ١٧٧.

المسألة الثانية: تحديد العامل المشترك في السنن التاريخية

أما الميزة الثانية لنظرته عليه السلام إلى السنن التاريخية، فهي: تحديد العامل المشترك في جميع هذه السنن وهو طاعة الله عز وجل ومعصيته.

فيقول عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا»[(١)].

«وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي»[(٢)].

والسمة الأبرز في هذا العامل المشترك بين السنن التاريخية هي سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي بها يكون حفظ المجتمعات من التفكك والانهيار وضياع النعم والخيارات وفقدان الأمن وما يتلوه من انعدام الأمان والسلام وانتشار الفوضى وعموم الفساد.

ولذا نجده عليه السلام قد ركز على دور هذه السنة التي تعد السمة البارزة في ظهور طاعة الله وعصيانه؛ ولذلك اتبعها بلعنه للسفهاء الذين يركبون المعاصي، والحلماء لتركهم التناهي.

---

(١) مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ج ١٢، ص ١٩٤.

(٢) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: الخطبة القاصعة، ج ٢، ص ١٥٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٣٤، ص ٢٢٣.

وفي قول آخرُ يظهر فيه أهمية هذه السنة التاريخية وما تؤول إليه الأمم في تركها، أو العمل بعكسها فيقول عليه السلام:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ ـ (أي الجنة) ـ وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ هَيْهَاتَ لاَ يُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ».

«لَعَنَ اللَّهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ»[1].

المسألة الثالثة: تشخيص نتائج السنن

وفي تشخيص ما تؤول إليه هذه الأمة من اتباعها للسنن التاريخية التي سارت عليها الأمم السالفة يقول عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ»[2].

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: من كلام له خاطب به أباذر، ج ٢، ص ١٢، ح ١٢٩.
وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي رحمه الله: ج ١٦، ص ١٥١، ح (٢١٢١٦)٩.

(٢) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: من خطبة له أول خلافته عظم فيها حقه: ج ٢، ص٧٩، ح ١٦٦.
الكافي للشيخ الكليني رحمه الله: ج ٨، ص ٦٦، ح ٢٢، وجاء فيه: (وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَرْبِ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم.

وتشخيصه عليه السلام لسلوك هذه الأمة سنن من كان قبلها، لم يكن تشخيص المنظّر للأحداث التاريخية، وأحوال الأمم السابقة؛ وإنما تشخيص الخبير المتمرس. ولذا نجده يظهر الأسباب والنتائج، فيبدأ بذكر الأسباب، فيقول:

«أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ» «لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ».

وهذه النتيجة التي تكشف عن تحرك السنة التاريخية في هذه الأمة تظهر نتائجها في كل زمان ومكان.

ثم إنه عليه السلام لم يكتفِ بذلك فقط وإنما يظهر ما تؤول إليه مضاعفة النتائج، إذ نفس هذه النتيجة يمكن للأمة أن تتحكم في تغييرها نحو الأفضل فيما لو سعت إلى تغيير هذه النتيجة التي يظهرها عليه السلام بأنها سبب آخر لتردي الحال، فيقول عليه السلام:

«لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ».

ويظهر هنا أن بعض السنن التاريخية المتعلقة بهذه الأمة تتضاعف فيها النتائج الارتدادية لسيرها، لدرجة يبدو فيها أن التدارك لهذه النتيجة صعب، إن لم يكن مستحيلا؛ والسبب يعود إلى تمسك هذه الأمة بالنهج الذي انتهجته، من جعلها الحق وراء ظهرها، وقطعها الأدنى (أي القريب من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ووصلها أي مؤازرتها واتباعها) للبعيد من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا: لم يكن عليه السلام ليدع هذه الأمة الإسلامية، ولاسيما العرب لتسير في هذا الطريق المظلم، أو أن تتبع سنن الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم؛ بل كان يرشدهم ويحثهم على تجنب الفتنة والوقوع بها والخوض فيها، فيقول عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلاَيَا قَدِ اقْتَرَبَتْ فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا.

تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَئُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ، شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلاَمِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلاَمِ، يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلاَعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»[1].

لكن النتائج التي انتهت إليها هذه الأمة كانت تظهر أنّ هذا التنبيه والتحذير والإرشاد، لم يكن ليؤتي ثماره كما لم تأتِ ثمار التوجيه والإرشاد والتحذير التي قدمها القرآن الكريم؛ والسبب في ذلك يبدو في إصرار الناس على التمسك بالباطل، وتقديم المصالح والأهواء على الحقوق والأحكام الشرعية.

أي أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليترك هذه الأمة دون أن تجري فيها سنة الافتتان كما جرت في الأمم السابقة إلا أن الفارق هو أن هذه الأمة كان لديها رصيد ضخم

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: خطبته في الفتنة وما يكون فيها، ج ٢، ص ٣٧. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٣٤، ص ٢٦٦، الباب الثالث والثلاثون، ما وقع في أيام خلافته عليه السلام.

من المعرفة بهذه السنن التاريخية ومقدماتها ونتائجها إذ لم يدعها القرآن على عمى ولم يتركها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دون هدى.

لكن النفس الإنسانية هي النفس لم تكن لتعلم موقعها من الحق والباطل ما لم تفتتن وتجرِ فيها هذه السنة الإلهية التي جرت في الأمم السابقة؛ وفي ذلك يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد سأله رجل عن الفتنة قائلا له: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عنها؟. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ:

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟.

فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولُ اللَّهِ أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

وَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟.
فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ»[1].

فكيف لا تكون كل هذه الإحاطة بهذه السنن التاريخية من مقدماتها، وديمومتها، وتضاعف نتائجها، من تكوين وعي تاريخي عند تلامذته بشكل خاص وعند العرب بشكل عام؟.

وكيف لا يكون سليم بن قيس الهلالي صاحب التصنيف الأول في كتابة الوجه الآخر لتاريخ المسلمين بهذا القدر الكبير من الوعي التاريخي والفكر المنهجي.

وكيف لا يكون محمد بن إسحاق المطلبي صاحب المغازي والسير ومصنف السيرة النبوية الأول بهذا الوعي التاريخي وهو قد نشأ في بيت عُرف بموالاته للعترة النبوية، وتتلمذ في مدرسة علي أمير المؤمنين عليه السلام، فهذا نهجهم في حفظ سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتدوينها على الرغم من اضطهاده ومحاربته على ما قدم لهذا العلم.

ولذا: لم تكن الحضارتان اللتان أحاطتا بأهل مكة في الشمال والجنوب وما تناقل إليها من أخبار الأكاسرة والقياصرة هما اللتين أنشأتا التاريخ عند العرب ولاسيما العرب المسلمين، بل ما زخر به القرآن الكريم والعترة النبوية من مادة لهذا العلم حركة، وسننا، ووعيا، وتطويرا، هو السبب الأول والمباشر لنشأة التاريخ عند العرب وتطوره.

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: خطب الإمام علي عليه السلام، ج ٢، ص ٥٠، ح ١٥٦.

المسألة الرابعة: بيان الدور الإرشادي في السنن التاريخية

إنّ بيان الدور الإرشادي لهذه السنن في إصلاح المجتمع المسلم ـ وهي الميزة الرابعة في نظرته عليه السلام إلى السنن التاريخية ـ يركز الإمام عليه السلام على هذا الدور الفعال وما له من أثر عميق على النفس، وهي تنظر في عاقبة تلك الأمم السابقة وما آلت إليه من رقي وتدهور ورفعة ودنو، بل كيف كان عاقبة أفرادها.

والدور الإرشادي للسنن التاريخية عند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتبلور في محورين، عام للناس وخاص للمؤمنين.

محورا الدور الإرشادي:

المحور الأول: المحور الإرشادي العام

في هذا المحور يركز الإمام علي عليه السلام على أسلوبين، وهما (أسلوب الاعتبار، وأسلوب التحذير).

ففي الأسلوب الأول يرشد الناس إلى الإصلاح من خلال اختياره بعض الشواهد التاريخية، والظاهر أن الإمام أختار هذا الأسلوب الإرشادي إلى طبقة خاصة من المجتمع وهم العقلاء، فهم الأوفق لفهم هذا النوع من الإرشاد، وهو الاعتبار.

فيقول عليه السلام:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلاَتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ، فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ

أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ؛ فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ.

فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالاخْتِبَارِ فِي مَوْضعِ الْغِنَى وَالاقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ»[2].

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ.

فَقَالَ:

أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥ و ٥٦.

(٢) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: خطب الإمام علي عليه السلام، الخطبة القاصعة في ذم الكبر، ج ٢، ص ١٤٣، خ ١٩٢. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: باب ٣١، ج ١٤، ص٤٦٨، خ٣٧.

وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ؛ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ، وَوُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا»[١].

وفي الأسلوب الإرشادي التحذيري يتوجه الإمام علي عليه السلام إلى طبقات المجتمع كافة ويدعوهم جميعاً ولاسيما العقلاء إلى التفكر في أحوال تلك الأمم السابقة، فيقول:

«وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ، مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا.

وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الأَيْدِي»[٢].

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: خبط الإمام، الخطبة القاصعة في ذم الكبر، ج ٢، ص ١٤٤ ــ ١٤٥، خ ١٩٢. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: باب ٤ بعثة موسى وهارون عليهما السلام، ج ١٣، ص ١٤١، خ ٦١. التفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ٤، ص٣٩٥، سورة الزخرف، الآية ٥٥.

(٢) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: الخطبة القاصعة، ج ٢، ص ١٥٠ــ ١٥١. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: باب ٣١، ج ١٤، ص ٤٧٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٣، ص ١٦٩.

ويمتاز هذا الأسلوب الإرشادي بميزات عدة:

١ . الدعوة إلى التفكير بأحوال الأمم السابقة مع بيان فائدة التفكر.

٢ . وضع منهج سلوكي للمجتمع يرتكز على تلك التجارب التي خاضتها الأمم السابقة لغرض اتباع ما من شأنه أن يحقق العزة؛ واجتناب ما من شأنه أن يؤدي إلى الذلة والتهلكة.

٣ . تشخيص الموارد التي تحمل على الفرقة بين أبناء الأمم وتجنب الوقوع فيها كالتضاغن والتشاحن والتدابر والتخاذل.

المحور الثاني: المحور الإرشادي الخاص

وفي المحور الثاني من الدور الإرشادي للسنن التاريخية، وهو المخصوص بالمؤمنين، يقول عليه السلام:

«وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلاءِ أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً.

اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ، وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ.

حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالاِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً وَأَئِمَّةً أَعْلاماً، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ

نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً، أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ، فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، وَقَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ، عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ»[١].

ونلاحظ في هذا النموذج من الخطاب أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد استخدم في الدور الإرشادي مع المؤمنين أسلوب الحث على التدبر في السنن التي جرت في الأمم السابقة والنظر في أحوال المؤمنين فيها؛ وهو المنهاج الذي يدعو إليه القرآن، قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

إذن؛ حظيت حركة التاريخ وسننه باهتمام كبير عند أمير المؤمنين علي عليه السلام مما انعكس بشكل ملحوظ وفعال على الوعي التاريخي عند العرب، وكان أحد العوامل التي دفعت بهذا العلم إلى التطور والنهوض وهو الأمر الذي أدى ثماره في ظهور شخصيات إسلامية تصدرت الكتابة عن التاريخ حركة وسننا ووعيا وتدوينا.

ولو أردنا أن نتتبع بقية الشواهد في خطب الإمام علي عليه السلام لرصد حركة التاريخ وسننه لاحتاج البحث إلى جهد أكبر في حين وجدنا فيما استشهدنا به كفاية لتكوين صورة عن أثر مدرسة أهل البيت عليهم السلام في حركة التاريخ وسننه وتطوره.

---

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ج ٢، ص ١٥١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

الفصل الخامس

حركة التاريخ وسننه عند فاطمة الزهراء عليها السلام وأثر ذلك على الوعي التاريخي وتدوينه

من الروافد التي نمت على منهله جذور علم التاريخ فانتشى واقفاً يلقي بأغصانه على خواص أهل هذا العلم، فأناخوا في ساحته ركابهم وحطوا بجواره قرطاسهم ودواتهم؛ هو رافد كلمات البضعة النبوية فاطمة الزهراء عليها السلام الذي أحدث نقلة نوعية في دفع حركة التاريخ الإسلامي وتدوينه.

إلا أن الفارق الذي يفترق به رواد مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن غيرهم من رواد المدارس الأخرى، أن رواد هذه المدرسة حينما كتبوا الحدث التاريخي كانت كتابتهم محاطة بالوعي والنقد والتحليل والواقعية والأمانة لجميع ما سارت عليه الأمة سواء كان يرضي أصحاب الحدث أم لم يرضهم.

ولذلك نجد أن جهابذة هذا العلم حوربوا أشد المحاربة واضطهدوا وشردوا ونفوا عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فضلاً عن ذلك فإنّ طلاب هذه المدرسة المحمديّة امتازوا ــ أيضاً ــ بتدوين الحدث وتصنيفه وتوثيقه قبل غيرهم سواء من التفت من المؤرخين إلى تدوين بعض ما يتعلق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كـ: (سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري)[١] أم من دوّن التاريخ الحولي كابن جرير الطبري[٢] وغيره.

(١) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين: ج ٢، ص ٦٥.

(٢) تاريخ التراث العربي: ج ٢، ص ١٥٩.

ومن هنا: نجد معظم الكتابات في هذا العلم أو الدراسات التي كتبت عنه تجنبت الخوض في مصنفات طلاب هذه المدرسة كـ: كتاب سليم بن قيس الهلالي أو حتى الإشارة إليه، ناهيك عن اتهامهم بالطائفية والتحزب لعلي عليه الصلاة والسلام، وكأنه لم يكن أحد أركان هذا التاريخ الإسلامي والعربي.

والسبب في ذلك كله يعود إلى كتابتهم التاريخ بوعي وأمانة وعدم انحياز للأهواء والأغراض السياسية، فكانت حياتهم في خطر مستمر وتشريد وغربة.

المبحث الأول: حركة التاريخ عند فاطمة الزهراء عليها السلام

المسألة الأولى: تشخيصها عليها السلام لبدء حركة التاريخ

تمتاز بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عمن سبقها وعمن لحقها في بيانها لحركة التاريخ بأنها عليها السلام تتفرد بتشخيص نقطة انطلاق النشأة والتكوين للخلق وتحديدها، بمعنى آخر جميع الذين تحدثوا عن تاريخ الأمم والشعوب ولم يتوسعوا في هذا التصنيف ليشمل جميع أنواع المخلوقات الحيوانية والنباتية والجمادات؛ لأن كل هذه الأجناس لها تاريخ في نشوئها ومواطن خلقها ووجودها.

إلاّ أن سيدة النساء فاطمة عليها السلام حينما قدمت الحركة التاريخية ابتدأت من النقطة الأولى التي خلق الله تعالى فيها الأشياء.

فمن هذه اللحظة تبدأ حركة التاريخ عند البضعة النبوية عليها السلام؛ وهو الأمر الذي لم يرد حتى في ظاهر آيات القرآن الكريم؛ أما باطن القرآن ففيه علم كل شيء.

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وهذا الغيب الذي جمع الله فيه العلوم بحيث لا يعزب عنه ــ عزّ شأنه ــ مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، قد جمعه الله تعالى أي هذا العلم في إمام مبين.

قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

فكيف بمن كانت حجة الله على الأئمة[3].

ولذا:

حينما بدأت بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالحديث عن الحركة التاريخية للوجود بدأتها من الخلق الأول والنشأة الأولى للأشياء.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٢) سورة يس، الآية: ١٢.

(٣) قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «نحن حجج الله على الخلائق، وأمنا فاطمة حجة الله علينا».

«الأسرار الفاطمية، للمسعودي: ص١٧، نقلاً عن تفسير أطيب البيان: ج١٣، ص٢٢٦.

فقالت عليها السلام:

«ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتا لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهارا لقدرته، تعبدا لبريته وإعزازا لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده من نقمته، وحياشة لهم إلى جنته»[1].

وهنا: لم تُظهر فاطمة عليها السلام الحركة التاريخية لخلق الأشياء وبدء تكوينها وإنما تلحق هذا البيان بإجراء الله تعالى لسننه التي جعلها في الخلق، والعلة التي لأجلها خلقهم؛ ولذا تضع في هذا البيان الموجز العلة والمقدمة والنتيجة مجموعة كلها في بيان هذه الحركة التاريخية لوجود الخلق. فكانت العلة في خلق الله تعالى للخلق هي:

١ . تثبيتاً لحكمته.

٢ . تنبيها على طاعته.

٣ . إظهاراً لقدرته.

٤ . تعبداً لبريته.

٥ . إعزازاً لدعوته.

والحكمة في جعله ـ عزّ شأنه ـ الثواب على الطاعة، ووضعه العقاب على المعصية هي:

(١) كتاب الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها: ج ١، ص ١٣٣. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص ٢٢١، الباب ١١. بلاغات النساء لابن طيفور: ص ١٥.

١ . ذيادة، أي دفعاً لعباده تعالى عن نقمته.

٢ . حياشة، أي يجمعهم ويسوقهم إلى جنته.

أما جعله ـ عز وجل ـ للسنن التاريخية في سير هذا الخلق، فكان يرتكز على سنّتين:

السنّة الأولى: طاعة الله تحقق الثواب.

السنّة الثانية: معصية الله تحقق العقاب.

المسألة الثانية: تحديد حركة تاريخ النبوة

مثلما تميزت الحركة التاريخية للخلق عند سيدة نساء العالمين عليها السلام كذلك الحال في بيانها الحركة التاريخية للنبوة، فقد أظهرت عليها السلام النقطة الأولى لانطلاق النبوة مع بيان العلة في وجودها وما يرافقها من سنن وما يتبعها من نتائج وما سبقها من مقدمات، ظهرت آثارها في الأمم التي بعثت فيها الأنبياء، فتقول عليها السلام:

«وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة؛ علما من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور.

ابتعثه الله إتماما لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذا لمقادير حتمه»[1].

وهنا تبدأ سيدة نساء العالمين عليها السلام في تحديد نقطة انطلاق الحركة التاريخية للنبوة، والتي تتميز بميزات منها:

(١) الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها: ج ١، ص ١٣٣.

١ . إنّ الله تعالى خلق الخليفة قبل الخليقة، بمعنى قدم خلق النبي المصطفى ﷺ قبل خلق الخلائق بزمن لا يعلم مقداره إلا الله تعالى ورسول الله وعترته عليهم السلام.

وهو ما عبرت عنه بقولها عليها السلام:

«اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه».

٢ . تقديم الحركة التاريخية للنبوة على الحركة التاريخية للخلق بثلاث مراحل زمنية:

المرحلة الأولى: مرحلة مكنون الغيب، وهي أولى المراحل لحركة تاريخ الخلق حيث كانت الخلائق في مكنون الغيب فلا يعلم أين كانت إلاّ الله تعالى.

المرحلة الثانية: مرحلة ستر الأهاويل، أي: أن هذه الخلائق كانت محاطة بستر يمنعها من الظهور، والهول: هو الفزع، فيكون الفزع هو الذي يصونها، أي يحفظها.

المرحلة الثالثة: مرحلة إقران العدم، أي ان هذه الخلائق لولا بعث المصطفى ﷺ لكانت معدومة من نعمة الظهور والفوز بالخلود بالجنة نتيجة للطاعة وتجنباً للمعصية.

٣ . بيان العلة في تقديم حركة تاريخ الخليفة، ــ أي: النبوة ــ على حركة تاريخ الخليقة هو لما يلي:

أ . علم الله تعالى بما تؤول إليه الأمور.

ب . إحاطته عز وجل بحوادث الدهور، أي الأزمنة.

ج . معرفته تعالى بمواقع المقدور، وفي رواية بمواقع الأمور.

فهذه الأسباب كانت وراء تقديم حركة تاريخ النبوة على حركة تاريخ الخلق، أي الخليفة قبل الخليقة.

٤ . إنّ الحكمة في بعث النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كانت فيما يلي:

أ . إتمام لأمر الله تعالى.

ب . عزيمة على إمضاء حكمه الله تعالى.

ج . وإنفاذ لمقادير حتم الله تعالى.

وعليه؛

يظهر مما تقدم فوائد تحديد سيدة النساء عليها السلام لنقطة انطلاق الحركة التاريخية للنبوة.

المسألة الثالثة: وقائع الحركة التاريخية الأممية

ثم تنعطف سيدة النساء عليها السلام بعد بيانها لبدء الحركة التاريخية للنبوة إلى الحركة التاريخية الأممية من خلال سير الرسالة المحمدية في الأمم، فتسجل الحركة التاريخية للنبوة ما رأته من وقائع في الأمم السابقة.

فقالت عليها السلام:

«فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها»[1].

(١) الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء عليها السلام: ج ١، ص ١٣٣. الانتصار للعاملي: ج ٧، ص٣٦٨.

بمعنى:

أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في أثناء الحركة التاريخية لنبوته رأى أربع وقائع في الأمم السابقة.

وهي الآتي:

الواقعة التاريخية الأولى: أن هذه الأمم متفرقة في أديانها، بمعنى أن كل أبناء ملة واحدة ودين واحد متفرقون في دينهم.

الواقعة التاريخية الثانية: أنّ هذه الأمم عكف على عبادة النيران.

الواقعة التاريخية الثالثة: أنها تعبد الأوثان.

الواقعة التاريخية الرابعة: أنها منكرة لله مع عرفانها بالخالق عز وجل وهذا أعلى مراتب الجحود.

وعليه؛

كيف كان عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إصلاح هذه الأمم؟.

قالت عليها السلام:

«فأنار الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلا عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم»[1].

وهنا: بيان لإنجازات النبوّة المحمدية في حركتها التاريخية الأممية؛ بمعنى: أنّ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حينما تقدم خلقه على خلق الأمم فكانت حركة تاريخ

(١) الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء عليها السلام: ج ١، ص ١٣٣.

النبوة أقدم من حركة تاريخ الأمم لزم ذلك أن يكون النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد شاهد سلوك تلك الأمم منذ أن قدر الله تعالى لها العيش على هذه الأرض واختلاف أزمانها وتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها وأنبيائها الذين بعثهم الله تعالى إليها.

وهو ما دلّ عليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1].

إذن؛

اقتضت الحركة التاريخية النبوية أن تكون شاهدة على الحركة التاريخية الأممية ومدونة للوقائع التاريخية التي وقعت في الأمم السابقة.

«فرأى الأمم فرقا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلا عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد صلى الله عليه وآله من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

المسألة الرابعة: حركة تاريخ العرب قبل الإسلام في نظر سيدة النساء عليها السلام

كثرت الدراسات حول تاريخ العرب قبل الإسلام وبيان الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية لهم، وتشابهت هذه الدراسات قديما وحديثا في بيانها للوضع المزري لهم على هذه الأصعدة دون التركيز على دور الرسالة المحمدية وجهد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده في نقل هذه الأمة من الحضيض إلى القمة، ومن الهمجية إلى التمدن والحداثة.

وإذا أرادت بعض هذه الدراسات الحديث عن ذلك فإنها تمرّ عليه مرورا عابرا.

في حين أننا نجد أن بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حينما تتحدث عن حركة تاريخ العرب قبل الإسلام وتبين الجوانب الاجتماعية والثقافية والعقائدية لهم تتبعها بالتغير الجذري لسلوك هذه الأمة وحركتها من خلال دور النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا البناء الجديد للأمة.

فتقول عليها السلام:

«وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الاقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد والورق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تعالى بأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

---

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي، خطبة الزهراء عليها السلام: ج ٣، ص ٣٥. الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء عليها السلام: ج ١، ص ١٣٥ و ١٣٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٢٩، ص ٢٣٦، خ ٩.

ورصدها عليها السلام للحياة التي كان عليها العرب قبل الإسلام كان مبنيا على الأسس البنائية للمجتمع العربي بحيث إن هذا البناء المتآكل والمتصدع أوشك على السقوط والانهيار.

والزهراء عليها السلام حينما تستعرض الحالة العامة لتاريخ العرب تجمع فيما بين الحياة الدنيوية والأخروية بجعل المقدمات التي كانت سببا في إيجاد الخليقة هي خاضعة ومرتبطة بالنتائج التي سنها الله تبارك وتعالى في سلوك هذه الخليقة، ولذا قالت: (وكنتم على شفا حفرة من النار) أي إشارة إلى تحقيق نتيجة هذا السلوك في الآخرة مع تحقق نتيجته في الحياة الدنيا.

ثم تنعطف عليها السلام إلى بيان الوضع النفسي العام لهذه الأمة، وهذه خصوصية خاصة إذ اعتادت الدراسات على تشخيص الحالة النفسية منفردة لكل شخص في المجتمعات، أو انها تهمل دراسة الحالة النفسية للمجتمع ككل، لكن الزهراء عليها السلام تتحدث عن الوضع النفسي العام الذي أصبح عليه العرب قبل الإسلام، وهي بذاك تعطي بيانا للمستوى الذي يشترك فيه الجميع كنتيجة طبيعية لتوحد الجميع في السلوكيات الفردية فأصبح سلوكا جماعيا واحدا عند الجميع.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[1].

أي أصبح الجميع على سلوك واحد، وهو الأمر الذي أشارت إليه عليها السلام في بيانها لصفات هذا السلوك الجماعي، وهي «مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام».

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

فهنا تحدد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أربع صفات خاصة بالمستوى النفسي للعرب وهي بمجموعها تدلل على الانهيار والخوف، والمذلة، بحيث أصبحوا بفعل هذه الحالة (مذقة الشارب) أي: استلذاذ الآخرين بهم، لأن المذقة هي (الشربة من اللبن الممزوج بالماء)[1].

و(نهزة الطامع)، أي: أصبحوا من الضعف فرصة لكل طامع وغنيمة يغتنمها الطماع[2].

و(قبسة العجلان) وهنا تعطي صورة أخرى للمستوى الذي بلغ إليه العرب من الضعف بحيث كانوا حتى بالنسبة للشبعان الذي ليس له رغبة في السلب، أن يأخذ منهم أي شيء فذاك أفضل من أن يفوته كل شيء، وما ذاك إلا لشدة ضعفهم وتشتت أمرهم.

وهذه الصفة لها بيان آخر: وهو أنهم أصبحوا نهبا لكل من مرّ بهم، وأن هذا النهب والسلب كان سريعا، لأن القبس هو شعلة من النار، والعجلان اسم سمي به شهر شعبان لقصر الصيام فيه ولانقضائه سريعا[3].

ومن كان هذا حالهم، فهم موطئ الأقدام يسحقون كما تسحق الهوام، أذلة خاسئين يخافون أن يتخطفهم الذين من حولهم من الفرس والروم، وهم الذين أشارت إليهم بلفظ الناس فيقودونهم عبيدا رجالا ونساءً.

---

(١) مجمع البحرين للطريحي: ج ٥، ص ٢٣٥.

(٢) أنظر: لسان العرب لابن منظور: ج ٥، ص ٤٢١، مادة (نهز). كتاب العين للفراهيدي: ج٤، ص١٥.

(٣) أنظر لسان العرب لابن منظور: مادة (عجل) ج ١١، ص ٤٢٦ و ٤٢٩. وانظر منه مادة (قبس) ج ٦، ص ١٦٧.

وعليه؛ كيف ستقوم لهم قائمة؟، بل كيف يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم الذل والمهانة والهوان وهم هذا حالهم؟!.

وهم مع هذا الضعف والذل كانوا يعيشون بطريقة همجية أقرب ما تكون حيوانية نتيجة لتفشّي الجهل والفقر والذل، فطباعهم ليست طباعاً بشرية، فقد كانوا يأكلون (القَدّ)[١] وهي جلود الحيوانات! ويشربون الطّرْق[٢].

أي: ماء السماء الذي يتجمع في حفر صغيرة فتبول به الإبل وتبعر!، بمعنى: أن حتى هذه الحيوانات لا تشرب من هذه الحفر، فأي مستوى من التردي والانحطاط على المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية كافة كان حال العرب قبل الإسلام.

ولذلك:

بعد هذا البيان لتاريخهم اتبعته عليها السلام ببيان آخر وهو أن الحياة الكريمة التي أصبحوا عليها بعد مرور ثلاث وعشرين سنة،ـ وهي الفترة الزمنية التي عاشها النبي الأعظم بعد البعثة ـ كان السبب الأول فيها هو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله.

ولذا قالت:

(فأنقذكم الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم).

لكن كيف كانت عملية الإنقاذ هذه؟! سؤال تجيب عليه سيدة النساء فاطمة عليها السلام ببيان آخر تعرض فيه تاريخ حركة السيرة النبوية.

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور: مادة (قدد) ج ٣، ص ٣٤٤.

(٢) لسان العرب لابن منظور: مادة (طرق).

المسألة الخامسة: بيان إنجازات النبوة في حركتها التاريخية

من الملاحظات التي لوحظت في عرض السيدة فاطمة عليها السلام لحركة التاريخ هو تتبعها بشكل دقيق لمراحل تطور البشرية، أي: أنها تمزج في هذا العرض عامل الزمن كمصداق لمفردة الحركة مع عامل التاريخ الذي يكون مصداقا للحدث.

وهنا: تقوم بضعة النبي الأعظم عليها السلام بعرض الحركة التاريخية للسيرة النبوية في ثلاثة محاور.

المحور الأول لهذه الحركة التاريخية يتمثل في شخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

المحور الثاني لهذه الحركة التاريخية يتمثل في عمل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

المحور الثالث لهذه الحركة التاريخية يتمثل في النتائج التي حققها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

محاور حركة تاريخ النبوة:

المحور الأول

تبدأ عليها السلام في بيان هذا المحور بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

والآية تبين ثلاثاً من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

الأولى: «علاقته صلى الله عليه وآله وسلم بأمته».

والثانية: «صفاته الشخصية فهو عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم».

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

والثالثة: «إنه عربي ومن قريش».

وهذا بحد ذاته يعطيهم زخما نفسيا ومعنويا؛ ثم تنطلق بعد هذه الآية فتقول:

«فإن تعزوه وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزى إليه صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

لأن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أنقذهم من الهلاك والموت والاندثار، لذا قالت عليها السلام تجدوه أبي دون نساءكم.

هنا: بيان لحفظ هذا الشخص الذي أنقذهم من خلال حفظ ابنته، وأن لها خصوصية خاصة بهذه الكينونية.

وأن ابن عمها علي بن أبي طالب عليه السلام وهو زوجها له دونهم مثل ما لها من الخصوصية المرتبطة بشخص هذا الرجل الذي أنقذهم من الهلاك والموت والاندثار.

لكنها وجدتهم قد أخلوا بهذا الجانب خللاً شديدا؛ ولذا قالت: (ولنعم المعزى إليه صلى الله عليه وآله وسلم) وهي في نفس الوقت قد لوحت في هذا المحور بتحرك السنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة كما سيمر بيانه.

المحور الثاني

وفي المحور الثاني في عرضها عليها السلام للحركة التاريخية للسيرة النبوية تقوم عليها السلام ببيان العمل الذي قام به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول:

«فبلغ الرسالة، صادعا بالنذارة، مائلا عن مدرجة[٢] المشركين،

(١) الاحتجاج للطبرسي، خطبة الزهراء عليها السلام: ج ١، ص ١٣٤ و ١٣٥.

(٢) المَدْرَجَةُ، الطريق: معظمه وسننه. لسان العرب: مادة (درج)، ج ٢، ص ٢٦٧.

ضاربا ثبجهم[١]، آخذا بأكظامهم[٢]، داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام[٣]، وينكث الهام[٤]، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر»[٥].

المحور الثالث

ثم بعد إيرادها لما قام به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من عملٍ انعطفت عليها السلام على إيراد النتائج، فقالت:

«حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ[٦] النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص[٧]»[٨].

---

(١) الثبج، ثبج كل شيء: معظمه، ووسطه، وأعلاه، والجمع أثباج (لسان العرب): مادة (ثبج).

(٢) الكظيم، المكروب، ويقال: أخذ بكظمه فما يقدر أن يتنفس، أي أخذهم صلى الله عليه وآله وسلم فجعلهم لا يقدرون أن يتنفسوا، أنظر كتاب العين: مادة (كظم)، ج ٥، ص ٣٤٥.

(٣) جُف الطلعة وعاؤها الذي تكون فيه، وجُف الشيء: شَخْصُه. لسان العرب: مادة (جفف).

(٤) النكث: هو التفريق، والهام: هو الدماغ، فيكون المعنى: أنه صلى الله عليه وآله وسلم فرق ما عليه فكرهم الضال المنحرف.

(٥) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٥. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص ٢٦٣.

(٦) الوشيظ، كأمير: الأتباع والخدم والأحلاف.
«تاج العروس، الزبيدي: ج١٠، ص٤٩٧».

(٧) الخميص، عفيف البطن عن أموال الناس.
«لسان العرب: ج٧، ص٣٠».

(٨) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٣٥. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٢٩، ص٢٦٣.

المسألة السادسة: حركة تاريخ الصحابة وأهل البيت عليهم السلام في حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

بعد ذكرها عليها السلام لبيان الحركة التاريخية للسيرة النبوية وبيان إنجازاتها وجهادها ممثلا في ثلاثة محاور تنتقل بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك لبيان الحركة التاريخية لسير الصحابة وأهل البيت عليهم السلام أثناء حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

وحينما نقف عند معاني هذا البيان، نجد أن الزهراء عليها السلام تحدد مسارين لهذه الحركة التاريخية التي رافقت سير الدعوة النبوية.

المسار الأول: الحركة التاريخية لمسير بعض الصحابة.

المسار الثاني: الحركة التاريخية لمسير أهل البيت عليهم السلام ومعهم نفر من الصحابة.

أولاً: دلالة تحديد الحركة التاريخية لكلا المسارين

ألف ـ إن هذا التحديد في مسار الحركة التاريخية لسير بعض الصحابة وأهل البيت عليهم السلام أثناء حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظهر أن هذه الفترة الزمنية كانت تشهد تجمعين وأن لكل منهما صفاته وإنجازاته وأهدافه.

باء ـ إنّ هذين المسارين أخذا بالاستقلال في حركتهما التاريخية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحيث أصبح لكل منهما مدرسته الخاصة به وله أتباعه وتلاميذه الذين ينهلون منه أحكامهم وعقائدهم.

جيم ـ ظهور بعض الخلافات بين أنصار أعمدة هذين المسارين في هذه الفترة الزمنية بسبب اختلاف الرؤى في فهم الرسالة المحمدية وطريقة التعايش معها.

دال ـ التباين في إنجازات كلا المسارين في الجهاد الميداني في ساحات الحروب أو الجهاد البنائي في نشوء المجتمع الجديد.

ثانيا: تباين المسارين في الحركة التاريخية

إن من يقرأ التاريخ الإسلامي بعين البصيرة والبحث العلمي والموضوعي ليرى بوضوح هذا التباين لكلا المسارين في الحركة التاريخية للسيرة النبوية في أثناء حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

أما من أناخ في رحاب مدرسة العترة الطاهرة فإنه ليجد الحقائق تتلألأ دون جهد أو عناء.

لاسيما وهو ينظر في كلمات بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي تتحدث عن سير الحركة التاريخية في هذه الفترة الزمنية من بعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وإلى يوم وفاته. فتقول عليها السلام:

«وبعد أن مني ـ النبي صلى الله عليه وآله ـ ببهم[١] الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان[٢] أو فغرت[٣] فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها[٤]»[٥].

---

(١) بهم الرجال: شجعانهم. (الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٣٦).

(٢) نجم: ظهر، وقرن الشيطان: أمته تابعوه. القرن: الروق من الحيوان، موضعه من رأس الإنسان وهو حد الرأس وجانبا. (تاج العروس للزبيدي: ج١٨، ص٤٤٣).

(٣) فغرفاه: أي فتحه، والفاغرة من المشركين: الطائفة منهم. (الصحاح للجوهري: ج٢، ص٧٨٢).

(٤) قذف: رمى، واللهوات بالتحريك: جمع لهاة اللحمة في أقصى شفة الفم. (الصحاح للجوهري: ج٦، ص٢٤٨٧).

(٥) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص٢٢٤.

قبل أن تُظهر بضعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم صفات كلا المسارين التاريخيين تبدأ بذكر ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهد وجهاد في نشر الإسلام، ثم تعرض بعد هذه المقدمة حقيقة كلا المسارين في التعامل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته التي جاء بها.

فتبدأ بذكر الحركة التاريخية لمسار أهل البيت عليهم السلام في هذه الفترة الزمنية من عمر الرسالة المحمدية، فتقول:

«قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ[1] حتى يطأ صماخها[2] بأخمصه[3].

ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا[4] في ذات الله، قريبا من رسول الله، سيدا في أولياء الله، وأنتم....»[5].

ثم بعد بيانها للحركة التاريخية لمسار أهل البيت عليهم السلام ممثلا في هذه الفترة بشخص علي أمير المؤمنين عليه السلام مع توصيف بلاغي دقيق في دلالته وبيانه لكيفية سلوك الإمام علي عليه السلام في هذه الفترة، فتبدأ أولاً ببيان منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرابته الإيمانية فتختار من تلك المنازل، منزلة المؤاخاة، فتقول: «فقذف أخاه في لهواتها».

---

(١) ينكفئ: يرجع فانكفؤوا أي رجعوا. (الصحاح للجوهري: ج١، ص٦٧).

(٢) الصماخ: فرق الأذن. (الصحاح للجوهري: ج١، ص٤٢٦).

(٣) الأخمص ما لا يصيب الأرض من باطن القدم. (تاج العروس للزبيدي: ج٩، ص٢٧٥).

(٤) بئر كدود، إذا لم ينل ماؤها إلا بجهد.

(٥) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص٢٢٤.

بمعنى: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما كان يرى يقدم المشركون أو المنافقون يقدمون على إشعال نار الفتنة أو الحرب فإن أول شيء يقوم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في محاربة هذا الفساد أن يقذف أخاه علياً في عمق فم الحرب، وهو «اللهاة».

ثانياً: تُبين سيدة النساء عليها السلام في عرضها الحركة التاريخية لمسار أهل البيت عليهم السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن الوقائع التاريخية التي سجلتها هذه الحركة تمثلت بما يلي:

١ . إنّ الإمام علياً عليه السلام لا يرجع من الحرب «حتى يطأ صماخها بأخمصه»، أي: يطأ وسط رأس هذه الفتنة بباطن قدمه وهو الأخمص.

٢ . يخمد لهب هذه النار بسيفه وهو كناية عن قتل رؤساء الفتنة.

٣ . مكدوداً، أي مجداً مجتهداً في ذات الله تعالى.

٤ . قريباً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يفارقه مع وجود رتبة القرابة الإيمانية والرحمية.

٥ . سيداً في أولياء الله تعالى.

هذه الوقائع التاريخية لمسار حركة تاريخ أهل البيت عليهم السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قابلها تسجيل للوقائق التاريخية لمسار حركة تاريخ بعض الصحابة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فكانت كالآتي:

قالت عليها السلام:

«وأنتم ـ أي: المهاجرون والأنصار ـ في رفاهية من العيش، وادعون

فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون[١] الأخبار وتنكصون[٢] عند النزال، وتفرون من القتال»[٣].

فأول هذه الوقائع التاريخية هو: انهم كانوا في رفاهية من العيش، أي لم تشغلهم تلك الفتن التي يثيرها المشركون في المجتمع الإسلامي.

ثانياً: «وادعون» أي أنهم يتركون النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل بيته وتلك الثلة من أصحابه التي وصفتها بالنفر البيض الخماص يواجهون الأخطار.

ثالثاً: «فاكهون» قد انصرفوا إلى ملذات المعيشة من الأكل والشراب في حال كان النبي وأهل بيته وأولئك النفر البيض الخماص في جهد وجهاد وزهد وكفاف.

رابعاً: «آمنون» لم يشتركوا في الحروب لا بأنفسهم ولا بأهليهم ولا بأموالهم ولذا هم آمنون بتركهم الجهاد وهم آمنون بفعل اتكالهم على جهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ونفر من أصحابه رضي الله عنهم.

خامساً: من الوقائع التاريخية لمسير بعض الصحابة انهم كانوا يتربصون بأهل البيت عليهم السلام الدوائر وهذا اللفظ من بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يظهره القرآن في بيانه للوقائع التاريخية للمنافقين والأعراب.

---

(١) تتوقعون أخبار المصائب والفتن النازلة بنا، التوكف: التوقع، يقال: مازلت أتوكفه حتى لقيته. (الصحاح للجوهري: ج٤، ص١٤٤١).

(٢) النكوص: الأحجام عن الشيء، ويقال: نكص على عقبيه، ينكص وينكص، أي رجع. (الصحاح للجوهري: ج٣، ص١٠٦٠).

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦.

فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

سادساً: «وتتوكفون الأخبار»، أي: كانوا يتوقعون الأخبار السيئة بأهل البيت عليهم السلام ليفرحوا بها.

سابعاً: «تنكصون عند النزال»، النكص؛ الإحجام، أو التراجع، أي: كانوا يتراجعون عند النزال فلا يواجهون الخصم بسبب الخوف لكونهم جبناء.

ثامناً: ومن الوقائع التاريخية التي سجلت لأولئك الأعراب انهم كانوا يفرون في القتال، والفرق بين النكوص عند النزال وبين الفرار؛ وان كان السبب في حدوثهما واحداً وهو الخوف والجُبن؛ فان النكوص أو التراجع يكون في المواجهة الفردية شخصاً لشخص والفرار في القتال يكون في الأغلب عند اشتباك القوم جميعاً.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠ ــ ١٤١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٨.

فعندها لا يميز بين من يقاتل بشجاعة في الوهلة الأولى على من اختار الفرار وهي فرصة لمن رغب بذلك كي لا يفتضح أمره ويُشخص.

ولذلك:

يعد الفرار أكبر ضرراً من التراجع لما يحدثه من ضرر على الجماعة أو الجيش.

ولذا: عدّ الفرار من الذنوب الكبائر.

هذا التباين الواضح في الوقائع التاريخية لكلا المسارين ألقى بثقله على الحركة التاريخية للإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مما أدى إلى تقديم التاريخ بوجهين مختلفين تكونت ملامحهما في أروقة المدارس التاريخية الإسلامية في المدينة والكوفة والشام، وقد أخذت السياسة الحاكمة من تحديد هذه الحركة التاريخية مأخذاً كبيراً فغيبت وقائع وغيرت حقائق لا يسعنا ذكرها[1].

بل: قد تدخلت السلطات الحاكمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكل جذري في الحركة التاريخية لكلا المسارين.

وجدير بنا ونحن ندرس الحركة التاريخية عند بضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن نستوفي ما جاء عنها عليها السلام في بيان هذه الحركة ومراحل تنقلها حسبما وضعته الزهراء عليها السلام من محطات زمنية لهذه الحركة التاريخية التي ابتدأها من نقطة الانطلاق الأولى لتاريخ خلق الوجود وإلى انتهاء عمر الدنيا، وما ارتبط بهذه الحركة التاريخية من سنن إلهية رافقت الأمم السابقة وسترافق هذه الأمة.

(١) أنظر: الشيعة والسيرة النبوية بين التدوين والاضطهاد، للمؤلف. وهي دراسة في نشأة علم السيرة وتطوره خلال القرن الأول والثاني للهجرة.

المسألة السابعة: الحركة التاريخية للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

من المحطات التي عرضت فيها بضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحركة التاريخية الكونية، هي الفترة الزمنية التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي توضح فيها حركة تاريخ المسلمين. فتقول عليها السلام :

«فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة[١] النفاق، وسمل جلباب[٢] الدين، ونطق كاظم الغاوين[٣]، ونبغ خامل الأقلين[٤]، وهدر فنيق المبطلين[٥]، فخطر في عرصاتكم[٦]، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه[٧] هاتفا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافا، وأحمشكم[٨] فألفاكم غضابا فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتدارا، زعمتم خوف الفتنة.

---

(١) الحسك: ما يعمل من الحديد على مثاله، وهو من آلات العسكر، وقولهم: في صدره، على حسيكة وحساكة، أي منغن وعداوة. (الصحاح للجوهري: ج٤، ص١٥٧٩).

(٢) ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على مدرها. (مجمع البحرين للطريحي: ج١، ص٣٨٤، باب ج).

(٣) الضالين: غوي، الغي: الضلال والخيبة.

(٤) الخامل: من خفي ذكره وكان ساقطا لا نباهة له. (الصحاح للجوهري: ج٤، ص١٦٨٩).

(٥) الهدير: ترديد البعير صوته في حنجرته. (الصحاح للجوهري: ج٢، ص٨٥٢). الفنيق: النمل المكرم من الإبل الذي لا يركب ولا يهان. (الصحاح للجوهري: ج٤، ص١٥٤٥).

(٦) خطر: خطر البعير بذنبه إذا رفعه مرة بعد مرة ومزب به فخذيه. (تاج العروس للزبيدي: ج٦، ص٣٥٧). العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. (الصحاح للجوهري: ج٣، ص١٠٤٤).

(٧) مغرزه: أي ما يختفي فيه تشبيها له بالقنفذ فإنه يطلع رأسه بعد زوال الخوف.

(٨) أي حملكم على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه.

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١]»[٢].

وهذا البيان الذي تعرض فيه الزهراء عليها السلام سير الحركة التاريخية للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تضمن ميزات عدة، وهي كما يلي:

أولاً

فضلاً عن بيانها عليها السلام للحركة التاريخية للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنها تخص ضمناً أول السنن التاريخية وقوعاً لهذه الأمة.

ثانياً

إظهار للنتائج التي أعقبت المقدمات وهي الوقائع التاريخية للمسلمين في هذه الفترة الزمنية.

ثالثاً

تحديد دقيق لعامل الزمن الذي بدأت فيه الحركة التاريخية للمسلمين بمرحلة جديدة، أي: من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين مواراته في روضته المقدسة وهي ثمان وأربعون ساعة.

فقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاثنين ثم ووريّ الثرى ليلة الأربعاء[٣].

فعلى رغم قصر هذه الفترة الزمنية إلاّ أنها شهدت من الوقائع التاريخية الشيء كثير؛ فكيف كانت صورة الحركة التاريخية للمسلمين التي بدأت عجلاتها بالدوران وهي تسجل مرحلة جديدة من السير؟.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦ و ١٣٧.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٢، ص٣٠٥.

المسألة الثامنة: الوقائع التاريخية التي كانت مقدمات للسنن الأممية

تستعرض سيدة النساء فاطمة عليها السلام ما حدث من الوقائع التاريخية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تعد مقدمات لوقوع السنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة، فها هي اليوم قد وقعت في أمة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

فكانت نتيجة حتمية لما شهدته المرحلة الأولى من الحركة التاريخية للمسلمين أثناء حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتباين المسارين فيها، أي مسار أهل البيت عليهم السلام مع نفر من الصحابة، يقابلها أصحاب المسار الثاني وهم الأعراب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

والسبب في حدوث هذين المسارين ـ كما أسلفنا ـ نردّه إلى اختلاف الرؤى والفهم والاعتقاد بالنبوة.

تستعرض سيدة النساء عليها السلام تكملة هذا المسار الذي ظهرت مكوناته بصورة مموهة من خلال الوقائع التاريخية التي مرّ ذكرها في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى واقع علني يضرب بقوة في حركة تاريخ المسلمين مسجلا فيه عدداً من الوقائع التاريخية المتسارعة الحدوث والتي خلفت آثاراً ونتائج متسارعة أيضاً، وهي كالآتي:

قالت عليها السلام:

«فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم».

فما الذي ظهر في الوقائع التاريخية في المسلمين؟.

الواقعة التاريخية الأولى: «حسكة النفاق، أو حسيكة النفاق»

وهي: الحقد، والعداوة، والضغن، وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إن الرجل يعطي المرأة حتى يبقى ذلك في نفسه عليها حسيكة»[1].

أي: حقد.

أي: أن هؤلاء الأعراب قد بلغ النفاق في قلوبهم أعلى درجاته بحيث تحول إلى حقد وعداوة وبغض وهي حقيقة قرآنية ونبوية.

أما القرآن الكريم فيقول تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[2].

وأما النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فقد أوضح الطبيعة السلوكية للنفاق وارتباطها بالقلب من حيث تعلق حالة الحب والبغض به.

أي: ان الحب والبغض حالتان وجدانيتان ونفسيتان من لوازم القلب، فإذا مرض القلب بالبغض بفعل النفاق انعكس ذلك على السلوكيات فيترجم في علاقة المسلم بعلي بن أبي طالب عليه السلام.

قال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب عليه السلام:

«لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[3].

---

(١) المصنف ـ للصنعاني، باب: غلاء الصداق، ج٦، ص١٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، مسند علي بن أبي طالب عليه السلام: ج١، ص٩٥، سنن الترمذي: ج٥، ص٣٠٧.

ولذلك ظهر هذا النفاق بعد أن ملئ القلب وسيطر على المشاعر فانقاد الذهن له أن أدى إلى العداوة والحقد، لان البغض أول مراتب النفاق وهو حاصل من خلال بغض الأعراب والمنافقين للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما ورد في الحديث النبوي.

إذن؛

أول الوقائع التاريخية ظهوراً في حركة تاريخ المسلمين هي ترجمة النفاق إلى واقع سلوكي شوهد على الأرض من خلال معاداة أهل البيت عليهم السلام.

الواقعة التاريخية الثانية: «سمل جلباب الدين»

وبيان هذه الواقعة التاريخية يحتمل بعض الوجوه، وهي كالآتي:

ألف. إن طبيعة المنافق أن يتظاهر بالإيمان ويبطن الكفر، بمعنى تراه حاضراً في مواطن المظاهر الإسلامية كالمساجد والصلاة فيها أو الذهاب إلى بيت الله تعالى لأداء فريضة الحج والعمرة وغيرها من المظاهر الإسلامية التي تعد جميعها ثوب الدين وهو الذي عبرت عنه السيدة الزهراء عليها السلام بالجلباب.

الا أن الواقعة التاريخية التي كشفت سلوكيات هؤلاء الأعراب هو تركهم لهذه المظاهر علناً دون أي رادع يردعهم عن ذلك.

وعليه؛ فيكون بيان هذه الواقعة التاريخية: هو انحسار هذه المظاهر الدينية لدرجة التحريف في الثوب.

الوجه الآخر: أن يكون المعنى من هذه الواقعة التاريخية هو منع أهل البيت عليهم السلام من القيام بدورهم من كونهم الستر الذي يستتر به المسلم على دينه،

فلا يقع في الضلال والفتن والشبهات، ولذا فهو أصبح اليوم مهتوك الستر ترد عليه الشبهات والفتن فترديه في دينه فيهلك، ويهلك معه دينه.

ومما يدل عليه:

ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان هذا المعنى.

١ . قال عليه السلام:

«هُدي من تجلبب بجلباب الدين»[١].

وقطعاً لا يراد بالهدى الذي يهتدي به الإنسان هو هذه المظاهر التي يشترك في أدائها المؤمن والمنافق كالصلاة مثلاً.

وإنما الجلباب الذي يهتدي من تجلبب به هو الولاية لأهل البيت عليهم السلام، كما أوصى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أمته بذلك قائلاً:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض؛ وأهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي»[٢].

٢ . في خطبة له عليه السلام يخاطب بها المسلمين لاسيما أولئك الذين تصدوا لتحديد مسار الحركة التاريخية لبعض الصحابة فيقول:

«سترني عنكم جلباب الدين، وبصّرنيكم صدق النية»[٣].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٥١٢.

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور: ج٣، ص٤٧٨.

(٣) الإرشاد، للمفيد: ج١، ص٢٥٤؛ الجمل، لابن شدقم المدني: ص١٥٢؛ البحار: ج٣٢، ص٢٣٧.

قال ابن أبي الحديد في بيان معنى هذا الحديث: إن إظهاركم شعار الإسلام عصمكم مني مع علمي بنفاقكم؛ وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصدق نيتي، كما يقال: «المؤمن يبصر بنور الله»[(١)].

وقد أخبر رسول الله ﷺ ابنته فاطمة عما يجري من بعده، ولاسيما هذه الوقائع التاريخية فقال ﷺ:

«فأنت أول من تلحقين بي مظلومة مغصوبة، وسوف تظهر بعدي حسيكة النفاق ويسمل جلباب الدين، أنت أول من يرد علي الحوض»[(٢)].

الواقعة التاريخية الثالثة:

«نطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين»

يمكن أن نستظهر من خلال هذه الواقعة التاريخية المتسارعة في ظهور السنن التاريخية الحقائق التالية:

ألف ـ هذه العناوين الثلاثة تدل على تشكل ثلاث مجموعات في المجتمع الإسلامي في حياة رسول الله ﷺ؛ وأنّ هذه المجموعات لها قادة. إلا أن ظهورها على الساحة كان عند وفاة رسول الله ﷺ. وهذه المجموعات هي:

أولاً: مجموعة الغاوين.

ثانياً: مجموعة الأقلين.

ثالثاً: مجموعة المبطلين.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١، ص٢٠٧.

(٢) البحار للمجلسي: ج٣٦، ص٢٨٨.

هذه المجموعات الإسلامية تبلورت على الحيثية العقائدية لا الاجتماعية الخاضعة لضوابط الأحساب والأنساب والفقر والغنى وحدودها، وانما ارتكزت على العقيدة بالنبوة حركة تاريخية لهذه الأمة بدأت منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولذا فالحديث يدور حول تشكل فرق عقائدية ضمن أنماط وسلوكيات خاضعة لمفاهيم محدودة في التعاطي مع النبوة ومن اعتقد بها.

وأن هذه المجموعات أو الفرق الدينية قد لعبت دوراً مميزاً في توجيه الحركة التاريخية للمسلمين، ناهيك عن امتيازها في وضع حجر الأساس بسريان السنن التاريخية في هذه الأمة.

وهو ما أظهرته سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتيها الاحتجاجيتين العامة والخاصة[1].

باء ـ إنّ أئمة هذه المجموعات كانوا قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأثناء سير الحركة التاريخية للمسلمين في حالة من التخفي والإهمال والانزواء، بل لم يكن لهم ظهور قيادي لهذه المجموعات.

والسبب في ذلك يعود إلى ثلاثة أمور:

١. خوفاً من أن يقدموا على عمل يكشف حقيقة اعتقادهم بالنبوة فلا يستطيعوا بعد ذلك القيام بما يخططون له، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

---

(١) الخطبة الاحتجاجية العامة ألقتها سيدة النساء فاطمة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله في جمع من صحابة النبي صلى الله عليه وآله، أمّا خطبتها الاحتجاجية الخاصة فهي التي كانت مع بعض نساء المهاجرين والأنصار قبل وفاتها صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[1].

وقد أشارت إليه الزهراء عليها السلام في قولها:

«تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار».

أي يتبعون الأخبار ويتوقعون حدوث أمر سيّئ كي يبادروا إلى ما عزموا عليه وترصدوا له.

٢. إن مكوناتهم النفسية لم تسمح لهم من البروز فهم من حيث التنشئة الاجتماعية قد تربوا على الخمول والنبذ، لم يلاقوا أي اهتمام أو عناية إما لكونهم أعراباً وإما لأنهم عبيد عند أشراف قريش ووجهائها فهم بتلك التنشئة الاجتماعية مسرعون في الإغواء يتبعون كل باطل. حتى ظهر فيهم من كان أرذلهم بحيث لا يملك القدرة على الإفصاح وهو ما عبرت عنه بضعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقولها:

«ونطق كاظم الغاوين».

وهم بفعل هذه المكونات النفسية والنشوئية التي جعلت منهم أقل الناس شأناً لا يستطيعون الحركة أو التعايش مع الناس، فهم في خمول وركود إلا أن رحيل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مكّن أخمل هذه المجموعة من النبوغ أي الظهور والبروز بعد أن كان طابعه الكسل وشأنه الضمور والانزواء.

٣. إنّ الدوافع الشخصية الممثلة في السعي من أجل بلوغ السلطة والجلوس في محل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعايشت الإمبراطوريات المعاصرة كالرومانية والفارسية

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

دفعت بعض النفوس إلى الادعاء والسعي بأحقيتها بمقام الحاكمية التي كانت لهرم السلطة الدينية الممثلة برسول الله صلى الله عليه وآله. ومن هنا أطلق عليها لفظ الخلافة.

فهؤلاء أسمتهم سيدة النساء فاطمة عليها السلام بـ«المبطلين»، ثم شخصت عليها السلام في بيانها لرموز هذه الواقعة التاريخية صفة قائد هذه المجموعة التي لم تكن تظهر نواياها في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن وفاته كانت سبباً في تجمع هؤلاء ضمن معطيات نفسية واحدة وهي بلوغ السلطة.

إلا أن الذي تمكن البروز منهم هو «الفنيق»، والفنيق: لغة فحل الإبل، والهدر هو صوت البعير الذي يتلجج في عنقه.

ووصفها عليها السلام لقائد المبطلين بهذه الصورة هو لكونه أشدهم حرصاً على بلوغ السلطة والجلوس على سدّة الحكم.

وفي صورة أخرى تتحدث عن هذه المرحلة التاريخية وما أعقبتها من آثار ينقلها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه لأقطاب الجمل، قال عليه السلام:

«بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذروة العلياء، وبنا انفرجتم عن ...».

إلى قوله:

«من وثق بماء لم يظمأ»[1].

لتشكل هذه الصورة وتلك اللتين نقلهما إلينا علي وفاطمة عليها السلام حقيقة الحركة التاريخية للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبعها من وقوع للسنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة.

---

(١)الإرشاد للمفيد: ج١، ص٢٥٤؛ شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج١، ص٢٠٧.

المبحث الثاني: السنن التاريخية عند فاطمة الزهراء عليها السلام

مثلما كانت الحركة التاريخية تحظى باهتمام بضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك هو حال السنن التاريخية، فقد ركزت عليها سيدة النساء فاطمة عليها السلام متبعة في ذلك النهج القرآني والنبوي في بيان السنن الإلهية وتوضيحها والتي أجراها الله عز وجل في الأمم السابقة.

وحيث أن هذه الأمة ستسير تبعا لما سارت عليه الأمم السابقة، لاسيما السنن التاريخية التي لحقت ببني إسرائيل؛ حسبما أوضحه النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فإن هذه الأمة ستحذو في سيرها حذو الأمم السابقة؛ بل ستظهر في هذه الأمة بعض السنن التاريخية الجديدة التي لم تقع في الأمم السابقة كسنة قتل أولاد الأنبياء وما أعقبها من نتائج، وغير ذلك من السنن.

المسألة الأولى: سنة الوقوع في الفتنة بين المقدمات والنتائج

حينما تتحدث الزهراء عليها السلام عن هذه السنة التاريخية التي وقع فيها المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن حديثها مجرد استعراض لهذه السنة أو غيرها، أي لم تكن تتحدث عنها بوصفها حدثاً تاريخياً وقع وانتهى الحال.

وإنما تعطي المقدمات التي هيأت لهذه السُنّة والنتائج التي أفرزها فتبدأ أولا بذكر مقدمات الوقوع في الفتنة، فتقول:

«فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل

الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم»(١).

هذه المقدمات لتكوّن الفتنة ونشوئها، اتبعتها الزهراء عليها السلام ببيان لتفاعل هذه المقدمات ونموها وتكامل تكوينها، فتقول بعد أن تهيأت المقدمات التي مكنت الشيطان من إخراج رأسه من مخدعه، فتبعه نمو وتكامل ونضوج للفتنة، فتقول عليها السلام:

«وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم»(٢).

وهنا مرحلة أخرى من نضوج الفتنة، وهي استظهار للسلوك العام، فتقول عليها السلام:

«ثم استنهضكم فوجدكم خفافا، وأحمشكم فألفاكم غضابا»(٣).

أي:

أصبحوا في مرحلة النضوج والتكامل الفتني إلى ما قبل الانفجار، وهو أشبه ما يكون بالبركان الذي تجمع تحت قشرة الأرض ولم يبقَ لظهوره سوى وجود فتحة صغيرة.

وهذا الحال نفسه انعكس على الواقع الإسلامي في هذه الفترة الزمنية، فكانت النتيجة ما يلي:

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦ و ١٣٧.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٦ و ١٣٧.

(٣) المصدر السابق.

قالت عليها السلام :

«فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم».

أي الوقوع في التيه بعد فترة قصيرة جدا من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف سيكون حالكم بعد سنين، وأي مستقبل سيكون لكم؛ ولذا قالت :

«هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتدارا، زعمتم خوف الفتنة.

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[(١)]».

أي: انكم جرت فيكم سنة الوقوع في الفتنة كما جرت في الأمم السابقة فهلكوا فيها.

المسألة الثانية: سنة تضاعف النتائج

مثلما قدر الله عز وجل في الحياة الدنيا سنة مضاعفة نتائج الأفعال كنتيجة تدحرج كرة الثلج، أو سريان الموج في المحيطات، أو سريان النار في الغابات، وغيرها من الشواهد التي تتحدث عن هذه السنة الكونية في مضاعفة النتائج كذلك الحال في السنن التاريخية التي تتحدث عن سلوكيات الأمم والمجتمعات، بل والسلوك الفردي أيضا.

وفي هذه السُنة التاريخية تقول الزهراء عليها السلام :

«ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها»[(٢)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١. أعيان الشيعة لسيد محسن الأمين: ج ١، ص ٣١٦.

أي: سوف لن يطول الأمر، بل ستتسارعون في مضاعفة نتائج الوقوع في الفتنة بزمن قصير كنفرة الدابة، ثم يسهل قيادة الفتنة في مضاعفة الانحراف فتتضاعف النتائج السلبية.

وتمضي عليها السلام في بيان هذه السُنة التاريخية فتقول:

«ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء، ويصير منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشاء، وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]»[2].

هذا التسارع في مضاعفة النتيجة واتساع دائرة أضرارها هي من السنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة، كقوم لوط الذين تضاعفت نتيجة سلوكهم في الاكتفاء بالرجال إلى تصميمهم على أن يخزوا لوطاً عليه السلام في ضيفيه وهم الملائكة؛ ثم تضاعفت النتيجة فعزموا على إخراج لوط وأهل بيته من قريتهم، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٧ و ١٣٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص٢٢٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٢.

وفي قوم ثمود كانت هذه السنة من أظهر السنن التاريخية؛ إذ منّ الله عزّ وجلّ عليهم بآية بينة وحجة قطعية في كون صالح عليه السلام هو نبي الله قد أرسله إليهم حينما أخرج لهم من الصخرة ناقة يتبعها فصيلها.

فلما تمادى بعض قومه عليه السلام فكذبوه وأنكروا هذه الآية الإلهية والمعجزة الربانية، بدأت هذه السنة التاريخية بالظهور؛ وهي مضاعفة النتيجة فكان انعكاسها على سلوكهم أن عقروا الناقة وفصيلها، ثم تتضاعف النتيجة وتتسع دائرة أضرارها وانحدارها بأن تحدوا الله ورسوله وطلبوا نزول العذاب، اعتقادا منهم بعدم صدق نبيهم، على الرغم من ظهور الناقة من صخرة صماء ملساء يتبعها فصيلها.

قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[1].

فعلى الرغم من ظهور هذه الآية العظيمة إلا أنّهم كانوا ينكرون ويستكبرون في الأرض ويتمادون في الباطل، وهم لا يدركون أنها سنة كونية جرت في الماديات، كما تجري في السلوكيات البشرية.

ولذلك تذكرهم الزهراء عليها السلام بأن عندهم آية الله عز وجل ومعجزة النبوة التي تصدهم عن الضلال والتردي، لكن مقدمات الفتنة كانت قد سرت فيهم لتتسارع معها سنة مضاعفة النتائج.

قالت عليها السلام:

«فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم. أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟.

﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[3]»[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة أل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٧. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص ٢٢٥، الباب ١١. دلائل الإمام لمحمد بن جرير الطبري الإمامي: حديث فدك ص ١١٦.

المسألة الثالثة: سنة تعجيل العذاب

هذه السنة التاريخية ترتبط مع سنة مضاعفة النتائج ارتباطا كبيرا؛ إذ يجرّ هذا التسارع في مضاعفة النتائج إلى حلول الدمار ونزول العذاب بصورة متناسقة فيما بين هاتين السنتين ككرة الثلج، كلما كبرت تسارعت وتضاعفت معها الأضرار.

تقول عليها السلام:

«فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بـ:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[١].

فبعين الله ما تفعلون.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢].

وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون»[٣].

ففي الوقت الذي تأخذ فيه السنن التاريخية استحقاقها من المجتمعات البشرية سواء أكانت نتائج الأفعال إيجابية أم سلبية؛ فإن من توابع هذه السنن أن ينتظر المظلوم ما يحل بالظالم من خاتمة لحياته.

كما أن صاحب الحق يكون مطمئناً بما ستؤول إليه عاقبة أمره، ولذا فهو في شوق وترقب لبلوغ نتائج السنن.

---

(١) سورة الهمزة، الآية: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٤١.

المسألة الرابعة: سنة انقلاب الأمم بعد أنبيائها

من السنن التاريخية التي وقعت في الأمم السابقة هي سنة انقلاب الناس بعد غياب أنبيائها أو موتهم؛ ويظهر أن هذه السنة التاريخية كانت قد وقعت في بني إسرائيل قبل موت موسى عليه السلام مما يكشف عن حجم هذه الفتنة وأثر هذه السنة.

ويبدو أن الحكمة في تذكير النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بتاريخ بني إسرائيل وما وقع فيهم من السنن الإلهية كان لأجل أن يحذر أمته من السير على نهج بني إسرائيل؛ إلا أن الأمر الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتحقق له.

ولذلك نجد أن هذه الأمة قد حذت حذو بني إسرائيل في انقلابها على أعقابها، غير أن الفارق بين الأمتين أن أمة بني إسرائيل انقلبت في حياة نبيها موسى عليه السلام، وأن هذه الأمة انقلبت بعد موت نبيها صلى الله عليه وآله وسلم والفارق أيضا: أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم ماذا سيجري بعده أثناء غيابه وذهابه لميقات ربه، بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم بما سيؤول إليه أمر أمته من بعده؛ ولطالما صرح بذلك.

أما عدم علم موسى عليه السلام فقد أظهره القرآن.

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۞ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٣ ـ ٨٥.

وأما علم النبي المصطفى بحال قومه من بعده فقد صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾(١).

وأظهرته السنة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنكم تحشرون حفاة عراة.

ـ إلى أن يقول ـ:

وأناسا من أصحابي فيؤخذ بهم ذات الشمال!! فأقول أصحابي أصحابي، فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم....»(٢).

وروى مسلم في صحيحه، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم فأقول يا رب أصحابي أصحابي فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك»(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري: ج ٤، ص ١١٠. مسند أحمد بن حنبل: ج ٦، ص ٥٣. المستدرك للحاكم النيسابوري: ج ٢، ص ٤٤٧.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ج ٧، ص ٦٨. مسند أحمد بن حنبل: ج ١، ص ٣٨٤. كنز العمال للمتقي الهندي: ج ١٤، ص ٤١٨، المبعث والحشر، الحوض.

وفي لفظ آخر أخرجه أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«فأقول أصحابي أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

قال فأقول:

سحقا سحقا لمن بدل بعدي»[١].

أما بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فقد كشفت الأمر على حقيقته القرآنية والواقعية، لأنها عاشت هذه اللحظات التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجرت فيها هذه السنة التاريخية، فقالت عليها السلام وقد خصت الأنصار في خطابها فتوجهت إليهم قائلة:

«يا معشر النقيبة[٢] وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة[٣] في حقي والسنة[٤] عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي يقول (المرء يحفظ في ولده)؟»[٥].

وهنا:

تجمع الزهراء عليها السلام بين حركة التاريخ لمسار الأنصار في حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وحركة التاريخ لمسارهم بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج ٥، ص ٣٣٣. صحيح البخاري، كتاب الفتن: ج ٨، ص ٨٧. الإيضاح لفضل بن شاذان الأزدي: ص ٢٣٣. إمتاع الأسماع للمقريزي: ج ١٤، ص ٢٢٣.

(٢) النقيبة: الفتية.

(٣) الغميزة: بفتح الغين المعجمة الزاي ـ ضعفة في العمل.

(٤) السِنة: النوم الخفيف.

(٥) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٩. الانتصار للعاملي: ج ٧، ص ٣٧٣.

ثم تنطلق من هذا البيان إلى تحرك السنن التاريخية في أمة أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول:

«سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة[١] ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فخطب جليل: استوسع وهنه[٢] واستنهر[٣] فتقه وانفتق رتقه، واظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال[٤]، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة[٥] عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافا، وصراخا، وتلاوة، وألحانا، ولقبله ماحل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[٦]»[٧].

---

(١) إهالة: بكسر الهمزة: الدسم، وسرعان ذا إهالة: مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته.

(٢) وهنه الوهن: الخرق.

(٣) واستنهر: اتسع.

(٤) أكدت: قل خيرها.

(٥) بائقة: داهية.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٧) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٣٩ ــ ١٤٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص ٢٢٧. أعيان الشيعة لسيد محسن الأمين: ج ١، ص ٣١٧.

المسألة الخامسة: سنة ظلم آل الأنبياء عليهم السلام وآثارها على الأمة

إن جميع السنن الكونية التي سنها الله تعالى ولاسيما السنن التاريخية تكون مصحوبة بمجموعة من الآثار حال وقوعها، وقد نجد أن بعض هذه السنن لها قابلية الدفع بآثارها إلى أزمنة متعاقبة، بل يظهر أن بعض السنن لها ديمومة هائلة في المحافظة على آثارها ما دامت هناك حياة على الأرض، أي أن هذه الآثار باقية ببقاء الليل والنهار، ومستمرة باستمرار البشرية، وهذا يكشف عن عظم هذه السنة التاريخية الإلهية وخطورة الوقوع فيها.

ومن أبرز هذا النوع من السنن، هي سنة ظلم آل الأنبياء عليهم السلام.

ويختلف نوع الظلم النازل بأنبياء الله تعالى حسب الظروف التي ينشأ فيها الظلم والأفراد والزمان والمكان، إلا أنّ من أكبر ما يقع على الأنبياء من الظلم هو ما يصيب أبناءهم، لما وضعه الله تعالى من عاطفة خاصة وعلاقة حميمة بين الآباء والأبناء.

وحينما يستعرض القرآن أنواع الأذى الذي أصاب الأنبياء عليهم السلام وما تبعه من آثار على الأمم نجده يقدم ثلاثة أنواع من الأذى، وهي (الأذى العقائدي، والأذى الجسدي، والأذى النفسي.

فالنوع الأول انحصر في تكذيبهم والاستهزاء بهم واتهامهم بالجنون.

وفي النوع الثاني انحصر الأذى في التعرض إلى أجساد الأنبياء عليهم السلام من الضرب والجوع والقتل.

وفي النوع الثالث انحصر الأذى في التعرض لآل الأنبياء وأرحامهم ومن آمن بهم.

أما آثار النوع الأول من الأذى فقد أظهره القرآن في قوله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وهم قوم هود عليه السلام. وفي قوم شعيباً عليه السلام وهم أصحاب الأيكة قال عزّ وجلّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وفي قوم مدين حينما كذبوا شعيب عليه السلام قال تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[3].

ويلاحظ في هذه الآية وغيرها التي تبين السنن التاريخية الإلهية في الأمم السابقة أن هذا البلاء حينما يقع على الأمم يكون في حياة الأنبياء عليهم السلام فيبيد الله تعالى هذه الأمم الظالمة وينجي أنبياءه عليهم السلام ثم يرسلهم الله تعالى إلى أمة أخرى وقوم آخرين كما تحدثت الآيات عن شعيب عليه السلام أو خروج لوط من قريته أو انتقال إبراهيم عليه السلام من العراق إلى بيت المقدس ثم إلى مكة وهكذا.

وفي صورة النوع الثاني من الأذى، وهو الأذى الجسدي وما يتبعه من آثار على الأمة فقد أظهره القرآن في قوله تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

وفي صورة النوع الثالث من الأذى الذي ينزل بالأنبياء عليهم السلام وما يتبعه من آثار، قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[1].

فهذه السنة التاريخية وما ارتبط بها من آثار تفاوتت في حجمها وسعتها ودوامها وقوة تأثيرها؛ قد جرت في هذه الأمة الإسلامية بعد وفاة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم بصورها الثلاث.

إلا أن الفارق بين الأمم السابقة وهذه الأمة يكمن في الأمور الآتية:

١ ـ أن نبي هذه الأمة صلى الله عليه وآله وسلم وجوده يرفع العذاب عن الخلق، أي ما دام حيا فإن العذاب لا ينزل بأمته وإن كذبوه ورضخوه بالحجارة وأدموه وجوّعوه وهجّروه وآذوا أهل بيته وقتلوا رحمه كحمزة بن عبد المطلب وما قامت به هند زوجة أبي سفيان من التمثيل بجسده، وقتل جعفر بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، ناهيك عن الأذى البالغ الذي كان ينزله المنافقون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمور أخرى كثيرة يطول ذكرها.

إذن: وجوده صلى الله عليه وآله وسلم بين أمته كان يرفع عنهم العذاب.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

٢ ـ لكونه الرحمة التي أرسلها الله للعالمين، ووجود الرحمة يرفع العذاب وإن وقع الأذى عليه صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾(١).

٣ ـ لكونه صلى الله عليه وآله وسلم لم يدعُ على قومه على الرغم من إيذائهم له، وكان يقول ـ بأبي وأمي ـ:

«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»(٢).

لكن الأمر بعد موته اختلف كليا، فقد رفعت تلك السنن والقوانين الإلهية التي جعل الله قيامها وحركتها بوجوده صلى الله عليه وآله وسلم، أي: تحرك السنن التاريخية التي جرت في الأمم السابقة فيما قدموا على ظلم الأنبياء عليهم السلام وتغلغل آثار هذه السنن ونفوذها في حال وقوعها.

وهو الأمر الذي أظهرته بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حينما توجهت بخطابها إلى الأنصار خاصة، فقالت عليها السلام:

أيّها بني قيلة! أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومبتدأ ومجمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) العقد النضيد والدر الفريد لمحمد بن الحسن القمي: ص ٥١، ح ٣٧. تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٦٢، ص ٢٤٧، برقم ٧٩٣٢. الدر المنثور لجلال الدين السيوطي: ج ٣، ص ٩٤. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢١، ص ١١٩، ح ١٧. ذكر أخبار إصبهان للحافظ الإصبهاني: ج ٢، ص ١٤٩.

بالخير والصلاح، والنجبة التي انتجبت، والخيرة التي اختيرت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الاسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنى حرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الاقدام، وأشركتم بعد الايمان.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1].

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم، فـ:

﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[2]»[3].

ويظهر هنا في كلامها عليها السلام : تقديم الحركة التاريخية لمسير الأنصار في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد مماته مع وقوع السنن التاريخية، ولاسيما سنة ظلم الأنبياء عليهم السلام في أنفسهم ممثلا ذلك في آل الأنبياء عليهم السلام ؛ وبخاصة أنها ابنته الوحيدة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٨.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٤٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله : ج٢٩، ص٢٢٨.

التي خصها بخصائص عديدة تكشف عن مدى قربها من شخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فهي قلبه وروحه التي بين جنبيه مع اختصاصها بموصول الأذى والغضب والرضا بشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كما دلت عليه النصوص المتضافرة، والمشهورة عند المسلمين.

ومع علمهم بما خصها الله تعالى من الكرامة والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يترتب على إيذاء رسول الله من آثار خاصة تتناسب مع مقامه وكرامته عند الله تعالى، إلا أن ذلك لم يكن بحائل ولا مانع لهم من إيذائها عليها السلام، ليناولوا بذلك ما اقترن بهذه السنة التاريخية من آثار خاصة كشفتها لهم الزهراء عليها السلام فقالت:

«ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة[١] التي خامرتكم[٢]، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور[٣] القنا[٤]، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة.

فدونكموها فاحتقبوها[٥] دبرة[٦] الظهر، نقبة الخف[٧]، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بـ:

---

(١) الخذلة: ترك النصر.

(٢) خامرتكم: خالطتكم.

(٣) الخور: الضعف.

(٤) القنا: الرمح؛ والمراد هنا من ضعف القنا، ضعف النفس عن الصبر على الشدة.

(٥) فاحتقبوها: فاحملوها على ظهوركم.

(٦) دبرة: دبر البعير، أصابته الدبرة بالتحريك وهي جراحة تحدث من الرجل.

(٧) نقبة الخف: نقب خف البعير رق وثقب.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[(١)].

فبعين الله ما تفعلون.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٢)]»[(٣)].

المسألة السادسة: سنة رين القلوب بين الأسباب والنتائج

من السنن التاريخية التي عرضها القرآن مجملا ومفصلا هي سنة رين القلوب، فمن حيث المجمل يذكر القرآن الأسباب التي تؤدي إلى تكون هذه السنة وآثارها ممثلا ذلك بالنتائج.

قال تعالى:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[(٤)].

وذكرها القرآن مفصلا في سير حديثه لنتائج تكذيب الأنبياء عليهم السلام ويظهر من العرض المجمل والمفصل لهذه السُنة التاريخية أن الأساس في تكونها هو التكذيب بما جاءت به الأنبياء عليهم السلام إلى أقوامهم فيلحقه التكذيب باليوم

---

(١) سورة الهمزة، الآية: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٤١. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٢٩، ص ٢٢٩. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٢، ص ٥٠.

(٤) سورة المطففين، الآية: ١٠ ـ ١٤.

الآخر، ليصل إلى ذروته في حجب الأذن عن كل موعظة أو إنذار أو تحذير أو آية أو معجزة فيكون عند ذلك الرين على القلوب أي حجبها وصدأها وموتها عند ذلك فلا حياة لها.

وإذا ما وصلت القلوب إلى تلك المرحلة تمادت في الظلم وظهر منها ما لم يظهر من أشد الوحوش قساوة وشراسة والعياذ بالله.

ولذلك تتوجه صلوات الله وسلامه عليها في بيانها لهذه السنة التاريخية وما يعقبها من نتائج إلى عامة الناس من المهاجرين والأنصار والأعراب، لأن الأمر لم يتعلق بفئة محددة بل بقانون إلهي وسنة ربانية جرت في جميع الأمم السابقة، وقد وقعت في هذه الأمة.

فقالت عليها وعلى أبيها وعلى بعلها وولدها الصلاة والسلام:

«معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم، لتجدن والله محمله ثقيلا، وغبه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء، وبان بأورائه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون»[2].

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٤٤.

المسألة السابعة: سنة الاستقامة في السلوك

في الوقت الذي كانت فيه فاطمة الزهراء عليها السلام تحذر المسلمين من الوقوع في فم السنن التاريخية التي توجدها السلوكيات المنحرفة فتقذف بها في الهاوية والخسران المبين، كانت عليها السلام أيضا تذكر بالسنن التاريخية التي تكون وليدة السلوكيات المستقيمة والمنضبطة بضوابط الشريعة المقدسة، وما تثمره من نتائج خيرة تعود على الإنسان بالسرور والخير والبركة في الدنيا والآخرة.

قالت عليها السلام :

«وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟! نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال[1] وقعته، وتنمره[2] في ذات الله.

وتالله لو مالوا عن المحجة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردهم إليها، وحملهم عليها ولسار بهم سيرا سجحا[3]، لا يكلم[4] حشاشه، ولا يكل[5] سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلا نميرا[6]، صافيا، رويا، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطانا، ونصح لهم سرا وإعلانا، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى

---

(١) النكال: ما نكلت به غيرك كائنا ما كان.

(٢) تنمر: عبس وغضب.

(٣) سجحا: سهلا.

(٤) يكلم، كلمه: جرحه.

(٥) يكل: يتعب.

(٦) النمير: الأبيض.

منها بنائل[١]، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[٣]»[٤].

وقد حددت عليها السلام آثار هذه السنة التاريخية، أي سنة الاستقامة بالعوائد التالية:

١ ـ الرد إلى الشريعة السمحاء، أي دفع الوقوع في الشبهات.

٢ ـ حمل الأحكام الشرعية فيكون الناس فقهاء عرفاء بشريعتهم فلا وجود للجهل بينهم، أي رفع المستوى التعليمي عند هذه الأمة لتكون كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس، ولكي تستطيع أن تمارس دورها الإرشادي للأمم. قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٣ ـ سهولة السير في متطلبات الحياة سواء الدنيوية أو الأخروية. وهو قولها «ولسار بهم سيراً سجحا».

---

(١) النائل: مثل الذي يعدو وعليه حمل ينهض به، أي لم يكن يحتمل من الدنيا بحمل.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥١.

(٤) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٤٧ ـ ١٤٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٣، ص١٦٠.

٤ ـ طبيعة هذا السير وصفاته ثلاث.

ألف . عذوبة الحديث.

باء . لا يتعب السائر من سيره.

جيم . ولا يمل الراكب من ركوبه.

٥ ـ المكان الذي سيصلون إليه في هذا السير الذي يسيرون به مع علي عليه السلام سيأخذهم من خلاله إلى مكان يتصف بصفات عدة، وقد شبهته عليها السلام بالنهر الجاري دلالة على العيش الرغيد ومن صفاته:

أ. العذوبة.

ب. الصفاء.

ج. يروي من العطش.

د. الكثرة.

هـ.تطفح ضفتاه.

و. لا يتجمع الطين على جوانبه.

ز. وأن الشارب من هذا الماء يصدر عنه، أي ينتقل عنه وهو ريّان.

٦ ـ إن هذه السنة التاريخية ومما تقدمه من ثمار وفوائد، مشروطة بأن يكون القائد أو الحاكم ناصحاً لرعيته في السر والعلن.

ثم تنعطف عليها السلام إلى ثمار اتباع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التمسك بوصيه؛ فتذكر لهم صفات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بوصفه إماماً وحاكماً وراعياً لهم ـ كما مرّ ـ.

المسألة الثامنة: سنة ترك التمسك بأحكام الله عز وجل بين المقدمات والنتائج

حينما بينت الزهراء عليها السلام سنة الاستقامة في السلوكيات البشرية ونتائجها الإيجابية على الإنسان في الدارين، تنتقل عليها السلام بعد ذلك لبيان العكس أي سنة ترك الاستقامة والتمسك بأحكام الله تعالى، وتُظهر أيضا مقدمات هذه السنة التاريخية ونتائجها على مصير المجتمع الذي تجري فيه.

قالت عليها السلام:

«ليت شعري إلى أي أسناد استندوا؟! وإلى أي عماد اعتمدوا؟! وبأية عروة تمسكوا؟! وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا[١] لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلا»[٢].

حينما سارت هذه الأمة سير الأمم السابقة ووقعت في فم السنن التاريخية التي مر ذكرها فكانت النتائج مضاعفة، والآثار مستمرة فمن البديهي أنها ستسير نحو الهلاك والتمادي في الظلم والضلال.

ولذلك: كانت تتعجب من هذا السلوك المتغير بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل تضع المقدمات لما هو أسوأ آثارا من جميع السنن التاريخية الأخرى. فتقول عليها السلام:

«استبدلوا الذنابى والله بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغما لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

---

(١) احتنكوا: استولوا عليهم، أنظر: الصحاح للجوهري: ج٤، ص١٥٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٤٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٤٣، ص ١٦٠. صحيفة الزهراء عليها السلام، جَمَعَهُ الشيخ جواد القيومي: ص ٢٥٤.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[١]. ويحهم.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢]»[٣].

أما النتائج المفجعة والفادحة لسلوك الأمة هذه السنة التاريخية، فتظهرها لهم بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول عليها السلام:

«أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دما عبيطا وذعافا مبيدا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غب ما أسس الأولون ثم طيبوا عن دنياكم أنفسا، واطمئنوا للفتنة جأشا، وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم، وأنى بكم، وقد عميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون»[٤].

هذا الكم الكبير من المفاهيم والرؤى والتشخيص لحركة التاريخ وسننه الذي ورد في القرآن ومن العترة النبوية الطاهرة عليهم السلام أعطى دفعا قويا لمن تتلمذ في هذه المدرسة على التخصص في هذا الفن والإحاطة به.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٣) معاني الأخبار للشيخ الصدوق رحمه الله: باب معاني قول فاطمة عليها السلام، ص ٣٥٥. دلائل الإمام لمحمد بن جرير الطبري الإمامي: ص ١٢٧. أمالي الطوسي: ص ٣٧٥. الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٤٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٤٣، ص ١٥٨.

(٤) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٤٣، ص ١٦٠ ــ ١٦١. الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص١٤٨.

بل قد شكل هذا التشخيص والدراسة لحركة التاريخ والسنن التاريخية من قبل القرآن والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام وبضعة النبي فاطمة الزهراء عليها السلام بخلق حالة متميزة من الوعي التاريخي والنقد والفهم والدراسة الدقيقة والمتأنية لما حدث وما يرتبط في كينونته من الزمان والمكان والأفراد والرواة والدوافع والأسباب والنتائج.

نتيجة البحث

يمكن أن نجمل نتيجة البحث في النقاط الآتية:

١. حركة التاريخ وسننه عند المسلمين قد اكتسبت مادتها ومعانيها ودلالاتها من القرآن والعترة عليهم السلام.

٢. ان عرض القرآن الكريم للوقائع التاريخية الأممية كان يراد به بناء هذه الأمة وسلامة سيرها من الوقوع في فخ تلك السنن التي فتكت بالأمم السابقة فلم يبقَ منها سوى الاطلال وأعمدة بناء متعرية تحيطها أكوام من الحجارة المتناثرة، أمّا نتاجها العلمي فهو منوط بأفراد استفادوا من تاريخ أسلافهم فاتعظوا به فلزموا أخيارهم ونبذوا فجارهم.

٣. إن هذه الأمة لم تتعظ بتلك السنن التاريخية للأمم السالفة ولم تلتفت إلى تحذيرات نبيّها صلى الله عليه وآله ولم تلتزم بمناهي قرآنها فاتبعت سنن من كان قبلها حذو النعل بالنعل؛ بل لقد أحدثوا سنناً جديدة لم تصل إليها عقول الأمم السابقة فظهرت فيها نتائج خلفت تلك المقدمات السننية فكانت آثارها جسيمة وردودها متعاظمة.

٤. ان حركة التاريخ وسننه عند أمير المؤمنين عليه السلام اتسمت بالإحاطة التامة

بتلك السنن وبيان العامل المشترك في وقوعها وتشخيص نتائجها وتوضيح غرض ذكرها وتذكير الناس بها.

٥. ان حركة التاريخ عند سيدة النساء فاطمة عليها السلام امتازت عن القرآن في تحديد نقطة بدء الحركة التاريخية لتلازم الزمن في ديمومة التاريخ. قبل تشخيصها للسنن الأممية، لكونها من توابع الحركة التاريخية.

٦. تفردها عليها السلام في بيان حركة تاريخ النبوة وتلازم هذا البيان مع مكنون القرآن مع إظهار العلة في جعل الخليفة قبل الخليقة.

٧. بيانها لانجازات حركة تاريخ النبوة الكونية وشهودية النبي الأعظم على الأمم السابقة.

٨. تشخيصها لمعالم حركة تاريخ العرب قبل الإسلام مع اتساع عين التاريخ على خصوصيات الأمة العربية وأنماط حياتها الاجتماعية وتحديد سلوكيات أفرادها.

٩. بيان انجازات الحركة التاريخية لسير النبوة وإظهار معاناتها وتحديد قابليات الناس واستعداداتهم الذهنية والروحية للتعاطي مع النبوة والاعتقاد بها.

١٠. تحديدها لوجود مسارين للحركة التاريخية في حياة النبي الأعظم وتعاظم هذين المسارين بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

١١. ان السنن التاريخية عند سيدة النساء انحصر بيانها فيما يخص هذه الأمة وان هذه الأمة هي أسرع الأمم وقوعاً في فخ السنن التاريخية.

١٢. ابتداء وقوع السنن التاريخية في هذه الأمة قبل ان يدفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

مع تشخيصها لبذور الفتنة والتي تعد أول مقدمات السنن التاريخية التي أهلكت الأمم السابقة.

١٣. إن بيان السنن التاريخية عند سيدة النساء لم ينحصر في عرض السنن التي أهلكت الأمم السابقة بل عرضت وبينت السنن التاريخية التي تحيي الأمم وتحفظها وتدر عليها الخير والأمن والأمان والرخاء.

١٤. إن هذه الأمة لو لزمت ما أمرها الله تعالى ورسوله به لأكلت من خير السماء والأرض ولسادت الدنيا وأصلحتها لكنها لم تلزم عهد الله كما فعل بنو إسرائيل حينما نقضوا إيمانهم وما عاهدوا الله عليه. قال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1].

وفي أهل مكة يقول القرآن:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[2].

فهذا ما خاطبت به سيدة نساء العالمين عَلَيْهَا السَّلَامُ في مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المسلمين لتحذرهم من السير على نهج الأمم السابقة.

فهل من نذير؟!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

قال رسول الله محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

قالت سيدة النساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام

أعلام المعصومين

أعلام

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الاحتجاج / الشيخ الطبرسي / الوفاة: ٥٤٨ هـ / تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان / سنة الطبع: ١٣٨٦ - ١٩٦٦ م / الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر - النجف الأشرف.

٣. الإرشاد / الشيخ المفيد / الوفاة: ٤١٣ هـ / تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث / سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٣ م / الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت — لبنان.

٤. الأسرار الفاطمية / الشيخ محمد فاضل المسعودي / تقديم: السيد عادل العلوي / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤٢٠ - ٢٠٠٠ م / الناشر: مؤسسة الزائر في الروضة المقدسة لفاطمة المعصومة عليها السلام للطباعة والنشر - رابطة الصداقة الإسلامية.

٥. أعيان الشيعة / السيد محسن الأمين / الوفاة: ١٣٧١ هـ / تحقيق وتخريج: حسن الأمين / الناشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت — لبنان.

٦. الأمالي / الشيخ الطوسي / الوفاة: ٤٦٠ هـ / تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤١٤ / الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع — قم.

٧. إمتاع الأسماع / المقريزي / الوفاة: ٨٤٥ هـ / تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي / الطبعة: الأولى/ سنة الطبع: ١٤٢٠ - ١٩٩٩ م، الناشر: منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية - بيروت — لبنان.
٨. الانتصار / العاملي / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ / الناشر: دار السيرة - بيروت — لبنان.
٩. الإيضاح / الفضل بن شاذان الأزدي / الوفاة: ٢٦٠ هـ / تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث / سنة الطبع: ١٣٦٣ ش / الناشر: مؤسسة انتشارات دانشكاه تهران.
١٠. بحار الأنوار / العلامة المجلسي / الوفاة: ١١١١ هـ / الطبعة: الثانية المصححة / سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م / الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت — لبنان.
١١. البداية والنهاية / ابن كثير / الوفاة: ٧٧٤ هـ / المجموعة: مصادر التاريخ / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م / الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت — لبنان.
١٢. بلاغات النساء / ابن طيفور / الوفاة: ٣٨٠ هـ / الناشر: مكتبة بصيرتي . قم المقدسة.
١٣. تاج العروس / الزبيدي / الوفاة: ١٢٠٥ هـ / سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٤م / الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت.
١٤. تاريخ مدينة دمشق / ابن عساكر / الوفاة: ٥٧١ هـ / تحقيق: علي شيري / سنة الطبع: ١٤١٥ / الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت — لبنان.
١٥. تحف العقول / ابن شعبة الحراني / الوفاة: ق ٤ هـ / تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤٠٤ - ١٣٦٣ ش / الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
١٦. التفسير الصافي / الفيض الكاشاني / الوفاة: ١٠٩١ هـ / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: رمضان ١٤١٦ - ١٣٧٤ ش / المطبعة: مؤسسة الهادي - قم المقدسة.

١٧. تفسير الميزان / السيد الطباطبائي / الوفاة: ١٤١٢ هـ / الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة.

١٨. الجمل / ضامن بن شدقم المدني / الوفاة: ١٠٨٢ هـ / تحقيق: السيد تحسين آل شبيب الموسوي / سنة الطبع: ١٤٢٠ - ١٩٩٩ م / الناشر: المحقق.

١٩. الدر المنثور/ جلال الدين السيوطي / الوفاة: ٩١١ هـ / الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت — لبنان. ذكر أخبار إصبهان / الحافظ الأصبهاني / الوفاة: ٤٣٠ هـ / سنة الطبع: ١٩٣٤ م، المطبعة: بريل - ليدن المحروسة.

٢٠. دلائل الإمامة / محمد بن جرير الطبري (الشيعي) / الوفاة: ق ٤ هـ / تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة — قم / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٤١٣ هـ / الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

٢١. الرسائل العشر / الشيخ الطوسي / الوفاة: ٤٦٠ هـ / الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة — إيران.

٢٢. سنن الترمذي / الترمذي / الوفاة: ٢٧٩ هـ / تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م / الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت — لبنان.

٢٣. شرح الأخبار / القاضي النعمان المغربي / الوفاة: ٣٦٣ هـ / تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤١٤ / الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٤. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد / الوفاة: ٦٥٦ هـ / تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة: الأولى / سنة الطبع: ١٣٧٨ - ١٩٥٩ م / الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٥. صحيح البخاري / البخاري / الوفاة: ٢٥٦ هـ / سنة الطبع: ١٤٠١ - ١٩٨١ م / الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦. صحيح مسلم / مسلم النيسابوري / الوفاة: ٢٦١ هـ / الناشر: دار الفكر - بيروت.

٢٧. صحيفة الزهراء عليها السلام / جمع الشيخ جواد القيومي / الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٣ ش / الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٨. العقد النضيد والدر الفريد / محمد بن الحسن القمي / الوفاة: ق ٧ هـ / تحقيق: علي أوسط الناطقي / المساعد: سيد هاشم شهرستاني ، لطيف فرادي / الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣ - ١٣٨١ش / الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر.

٢٩. عيون الحكم والمواعظ / علي بن محمد الليثي الواسطي / الوفاة: ق ٦ هـ / تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي / الطبعة: الأولى / الناشر: دار الحديث.

٣٠. الكافي / الشيخ الكليني / الوفاة: ٣٢٩ هـ / تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري / الطبعة: الخامسة / سنة الطبع: ١٣٦٣ ش / الناشر: دار الكتب الإسلامية – طهران.

٣١. كتاب العين / الخليل الفراهيدي/ الوفاة: ١٧٠ هـ / تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي ، الدكتور إبراهيم السامرائي / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤٠٩ هـ / الناشر: مؤسسة دار الهجرة.

٣٢. كشف المحجة لثمرة المهجة / السيد ابن طاووس / الوفاة: ٦٦٤ هـ / سنة الطبع: ١٣٧٠ - ١٩٥٠ م / الناشر: المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.

٣٣. كنز العمال / المتقي الهندي/ الوفاة: ٩٧٥ هـ / ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني / تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا / سنة الطبع: ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان.

٣٤. لسان العرب / ابن منظور / الوفاة: ٧١١ هـ / سنة الطبع: محرم ١٤٠٥ / الناشر: نشر أدب الحوزة - قم – ايران.

٣٥. مجمع البحرين / الشيخ الطريحي / الوفاة: ١٠٨٥ هـ / تحقيق: السيد أحمد الحسيني الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٣٦٧ ش / الناشر: مكتب النشر الثقافة الإسلامية.

٣٦. المستدرك / الحاكم النيسابوري / الوفاة: ٤٠٥ هـ / تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

٣٧. مستدرك الوسائل / الميرزا النوري / الوفاة: ١٣٢٠ هـ / تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث / الطبعة: الأولى المحققة / سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٧ م / الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - بيروت — لبنان.

٣٨. مسند احمد / الإمام أحمد بن حنبل / الوفاة: ٢٤١ هـ / المجموعة: مصادر الحديث السنية ـ قسم الفقه.

٣٩. المصنف / عبد الرزاق الصنعاني / الوفاة: ٢١١ هـ / تحقيق: عني بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظم.

٤٠. معاني الأخبار / الشيخ الصدوق / الوفاة: ٣٨١ هـ / تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري / سنة الطبع: ١٣٧٩ - ١٣٣٨ ش / الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٤١. مناقب آل أبي طالب / ابن شهر آشوب / الوفاة: ٥٨٨ هـ / تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف / سنة الطبع: ١٣٧٦ - ١٩٥٦ م، الناشر: المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف.

٤٢. نهج البلاغة / خطب الإمام علي عليه السلام / الوفاة: ٤٠ هـ / تحقيق: شرح: الشيخ محمد عبده / سنة الطبع: ١٤١٢ - ١٣٧٠ ش / الناشر: دار الذخائر - قم — ايران.

٤٣. وسائل الشيعة (آل البيت) / الحر العاملي / الوفاة: ١١٠٤ هـ / الطبعة: الثانية / سنة الطبع: ١٤١٤ / الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بقم المشرفة.

المحتويات

الفصل الأول
حركة التاريخ عند العرب قبل الإسلام

الفصل الثاني
دور القرآن في حركة التاريخ وسننه

الفصل الثالث
حركة التاريخ وسننه عند رسول الله صلى الله عليه وآله

الفصل الرابع
حركة التاريخ وسننه عند الإمام علي عليه السلام

الفصل الخامس
حركة التاريخ وسننه عند فاطمة الزهراء عليها السلام وأثر ذلك على الوعي التاريخي وتدوينه